شعر الشابي في الطبيعة: دراسة تحليلية

د. شفيق الإسلام بن ظل الرحمن *

الملخص:

نحن على وشك الشروع في دراسة شعر الطبيعة الرومانسي لأكبر شعراء الرومانسية في تاريخ الأدب العربي كله وهو الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي (١٩٠٩ – ١٩٣٤) . لا مجال لإنكار أن الشعراء العرب والعجم قد وصفوا الطبيعة في جميع العصور قبل العصر الحديث. ولكن ذلك كان وصفا بحتا لم يمزجوا فيه مشاعرهم مع الطبيعة, ولم يُشخِّصوها ولم يُنطِقوها. وشعراء العصر الحديث أول من وصفوا الطبيعة ومزجوا مشاعرهم معها. ومن هؤلاء الشعراء أبوالقاسم الشابي. قد تكلم هذا الشاعر في هذا الموضوع في كتابه "الخيال الشعري عند العرب"بشكل مفصل. ولم يكتفِ بالحديث عنه, بل قام بتطبيق نظريته الشعرية بإنتاج روائع الشعر في الطبيعة.

لم يقف الشابي مع الطبيعة موقف المشاهد فقط, بل تعدّاه؛ فجعلها شخصا يحاوره ويشاركه أحزانه وآلامه وسعادته وسروره,متأثرا بالآداب الغربية والشعر المهجري وعوامل أخرى. مزج الشاعر مشاعره مع الطبيعة واستخدم عناصرها المتعددة المختلفة لإيقاض شعبه وتوعية مجتمعه للرقي والازدهار ونيل

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية, كلية البنات الحكومية العامة للبكالوريوس, كولكاتا, الهند.

الحقوق. فضلا عن ذلك, استعار الشابي مفردات كثيرة متنوعة من الطبيعة لإغناء شعره وجعله أكثر عمقا وأسمى معنى.

حياة الشابي وآثاره:

ولد أبو القاسم الشابي ببلدة الشابية إحدى ضواحي مدينة توزر في جنوب تونس سنة ١٩٠٩ [١]. درس الشابي العلوم الإسلامية واللغة العربية [٢] ثم درس الحقوق وتخرج في عام١٩٣٠ [٣]. أصيب الشابي بداء تضخم القلب بسبب وفاة والده في ١٩٢٩ [٤] ما تسبب في وفاته مبكرا عام ١٩٣٤ وهو في ٢٥ من عمره [٥].

جعلت ثلاث حوادث حياة الشابي مظلمة: وفاة والده في ١٩٢٩, وزواج الشابي غير السعيد ووفاة الفتاة التي أحبها.

خلف الشابي آثارا عديدة رائعة. ونقلت عدد من قصائده إلى اللغات الأوربية مثل الفرنسية, والإيطالية, والإنكليزية والألمانية. [٦] ظهرت قصائد الشابي أولا في المجلات والصحف بما فيها مجلة *أبولو* لأحمد زكي أبو شادي. أما ديوانه الموسوم بـ*"أغاني الحياة"* , فلم ينشر إلا بعد وفاته, في ١٩٥٥ [٧]على الرغم من

---

[١] Badawi, M. M., *A Critical Introduction to Modern Arabic Poetry*, (Later on: Badawi) p. 157; Gaelle Raphael, Al-Shabbi's "The Will of Life"وكرّو، أبو القاسم محمد، *الشابي: حياته – شعره*، (كرو لاحقا) ص ٤٥ -٤٦.

[٢] Badawi, Op. cit, p. 57 and Raphael, op. cit.

[٣] Badawi, Op. cit, p. 57

[4] Badawi, Op. cit, 57، وكرّو، ص ٤٨-٤٩

[٥] Badawi, Op. cit, p. 57

[٦] يراجع: النعماني، عبد العزيز، *رحلة طائر في دنيا الشعر*، ص ٢٧-٢٨.

[7] Raphael, op. cit.

إرادته لنشره في حياته. وتضمن هذا الديوان اثنتين وتسعين قصيدة ومقطوعة، وأعيدت طباعته مرات أضيفت فيها إليه قصائد أخرى لم يدرجها الشاعر في الديوان [٨]. إضافة إلى ديوانه، نشرت له مقالات عديدة في المجلات، كما نشر له كتاب بعنوان *"الخيال الشعري عند العرب"*. وهو محاضرة ألقاها الشابي في القاعة الخلدونية بدعوة من النادي الأدبي لجمعية قدماء متخرجي مدرسة الصادقية في ٢١/ ١٩٣٠/٠١م [٩]. ينتقد الشابي في هذا الكتاب، التقليد في الأدب العربي، ويدعو إلى تحديث الأدب. وبذلك يساهم في بدء نهضة ثقافية في تونس ... [١٠]. ومن أعماله *يوميات الشابي* وهي مذكرات نشرت في الدوريات والمجلات وفي بعض كتب الدراسات قبل موته وبعده [١١].

أما *رسائل الشابي* فهي تلك التي تبادلها مع عدد من أصدقائه في السنوات التي تتراوح بين ١٩٢٧ و ١٩٣٤. وهي رسائل عادية تعتمد أسلوب المباشرة، بعيدا عن التأنق اللفظي، وهي تمثل عهد الشباب بما يحمله من حماس، وعفوية وعواطف جياشة. وتكمن أهمية هذه الرسائل في أنها تجلو عن نواح مهمة من حياة الشاعر [١٢].

وأما *مذكرات الشابي* أو قل "يوميات الشابي" فعددها ثلاث وعشرون يومية أو مذكرة. وقد بدأ هذا النمط من الكتابة منذ مطلع عام ١٩٣٠. ومن مميزات هذه

---

[٨] يراجع: النعماني، مصدر سابق، ص ٢٧-٢٨.

[٩] عمران، د. سحر عبد الله، *أبو القاسم الشابي: عبقرية فريدة وشاعرية متجددة: دراسة ومختارات*، ص ١٧، (عمران لاحقا).

[١٠] Raphael, op. cit

[١١] يراجع: عمران، مصدر سابق، ص ١٧.

[12] يراجع: عمران، مصدر سابق،ص ١٨.

المذكرات أنها عبارة عن خواطر وجدانية يبث عبرها بعضا مما يعتريه. ففي إحدى هذه المذكرات يقول: "أشعر اليوم بفتور في بدني ... أحس بكآبة عميقة تجعلني أكره الكتب والمحابر والأقلام إلخ"[١٣].

أثر المظاهر الطبيعية في شعر الشابي:

ولد الشابي ببلدة الشابية إحدى ضواحي مدينة "توزر" وهي كبرى بلاد "الجريد" الواقعة بجنوب تونس. "الجريد" بلاد جميلة فاتنة تحوي مناظر طبيعية رائعة. فهي تقع بين بساتين البرتقال، ووسط واحات شاسعة من شجر النخيل، ومن حواليها عيون فيها ماء زاخر عذب. وإلى الجانب الغربي منها تمتد الصحراء ذات الرمال الذهبية الحمراء. ومن الجنوب الشرقي فالغربي يبدو شطر "الجريد" بمائه الهادي العميق، فيتراءى للناظر كبحيرة حالمة بأمال الأجيال وأحداث السنين. في هذه المنطقة من الأرض التونسية الساحرة، والتي كان لها "بجمالها وفتنتها" أثر بعيد المدى في شاعرية أبي القاسم ... وفي هذه المنطقة نشأ الشابي وترعرع. ولئن انتقل مع والده بعد ذلك، إلى مدينتي "قفصة" و"زغوان"، فإن آثارها بقيت حية في نفسه، يتغنى بها في أشعاره وقصائده [١٤].

فضلا عن ذلك، أصيب الشاعر بداء تضخم القلب بسبب وفاة والده في ١٩٢٩م فأشار الأطباء عليه بأمرين فضلا عن العلاج بالأدوية المستديم، أحدهما: "أن

[١٣] عمران، مصدر سابق،ص ١٨.

[١٤] يراجع: كرّو، مصدر سابق، ص ٤٥-٤٦.

يعيش في المناطق الجبلية والطبيعية حيث الغابات، والبساتين، والوديان والأنهار.

فمضى الشاعر يجوب صيفا وشتاء مناطق تونس الطبيعية الجميلة ذات المصائف الفاتنة والمشاتي الرائعة. فمن بلاد "الجريد" إلى "زغوان" ومن عين دراهم" إلى "المشروحة". وقد عاش شاعرنا ثلاث سنوات وحيدا بين أشجارها وأنهارها، يتغنى مع الأطيار بحبه ويناجي النجوم بأمانيه ويحنو على الورود والأزهار، ويطرب لخرير المياه وحفيف الأغصان. وفي هذه الحقبة، أخرج الشابي أجمل قصائده الخالدة في وصف الطبيعة والجمال، وسحر الوجود وحب الحياة" [١٥].

أهمية شعر الشابي وموضوعاته:

إن لشعر الشابي أهمية بالغة ومكانة عالية في قلوب النقاد والقراء. فيقول النعماني عن أهمية شعر الشابي ومكانته في دنيا الشعر:

"لقد كان الشابي عبقريا – في مجال الشعر – بكل المقاييس، يتمثل ذلك في كل قصيدة ، بل في كل بيت. ولئن كانت مأساته في أنه لم يعش إلا كما تعيش الأزهار والطيور، فإنه لم يتغن شاعر بالحياة والفرح، وبالألم والموت، كما تغنى الشابي. وأيا كان منهج الناقد الذي يتناول شعره، أو ميل القارئ، فإن قراءة قصيدة واحدة من شعر الشابي تحمل الإنسان على الإعجاب به والتجاوب معه والإحساس

[١٥] كرّو، مصدر سابق، ص ٢٥

القوي بأن خلف الكلمات صورا ساحرة فريدة, وموسيقى جاذبة, تترجم أصدق المشاعر وأنبل الميول الإنسانية." [١٦] تغنى أبو القاسم الشابي بالكون والطبيعة, ومجد المرأة, والطفولة, والحب والجمال, ودافع عن الحق والحرية والعدل كما قام بتمجيد الشباب والفنون والشعر "وكل المثل العليا للإنسان في أي مكان" [١٧].

والآن نرى من المناسب أن نتحدث عن الطبيعة في كلام الشعراء والكتاب الرومانسيين وأهميتها عندهم.

أهمية الطبيعة عند الشعراء والكتاب الرومانسيين:

إن للطبيعة , ولا سيما المناظر المتقلبة الحزينة أهمية كبرى عند الرومانسيين ومكانة سامية في قلوبهم. فيقول شاتو بريان:

"كلما كان الفصل من فصول السنة حزينا, كان أقرب إلى نفسي ... ولمناظر الخريف طابع خلقي: فهذه الأوراق التي تسقط كما تسقط سنوات حياتنا, وهذه الزهور التي تذبل ذبول ساعاتنا,و هذه السحب التي تنجاب كما تنجاب أوهامنا, وهذا الضوء الذي يحول كما يحول فكرنا, وهذه الشمس التي تبرد كما تبرد جذوة حبنا, وهذه الأنهار المتجمدة التي تجمد حياتنا, لها صلات مستسرة بمصائرنا." [١٨]

هكذا يعطي شاتو بريان الطبيعة أهمية كبيرة ويمزج مشاعره معها.

---

[١٦] النعماني، مصدر سابق، ص ٢٨.

[١٧] يراجع: النعماني، مصدر سابق، ص ٢٨.

[١٨] Chateubriand, *Memoir d'Otre- Tombe,* ed. Garnier, tome I, livre III, pp. 142-143;

نقلا عن: هلال،غنيمى، *الرومانتيكية* ، ص ٦٠، (*الرومانتيكية* لاحقا).

إن أحب فصول السنة إلى الرومانسيين الخريف. فيقول النعماني في هذا الصدد:

"إن المعين الذي يستسقي منه الرومانسيون واحد, فهم يحتفلون بالخريف أكثر من احتفالهم بأي فصل من فصول السنة, إذ يروقهم منه الجليد, والضباب, وتجرد الأغصان من أوراقها, وعصف الرياح بالأوراق الجافة وتعطل الحياة في هياكل الأشجار ــــــــــــــــــ وفي كل ذلك معنى الذبول والفناء, ترجمة لروح الحزن السائدة لدى الرومانسيين" [١٩].

ويقول مثلا لامارتين في قصيدة شهيرة له:

"سلاما أيتها الغابات المتوجة ببقايا الخضرة

والأوراق المصفرة المنثورة ..

على العشب ..

سلاما أخريات الأيام الجميلة"[٢٠].

احتلت الطبيعة هذه المكانة السامية المرموقة في الشعر الرومانسي الأوربي. والآن سنتحدث عن وضع الطبيعة في الشعر العربي قبل العصر الحديث.

وضع الطبيعة في الشعر العربي قبل العصر الحديث:

[١٩] النعماني، مصدر سابق، ص ٥٢.

[٢٠] النعماني، مصدر سابق،ص ٥٢.

كانت الطبيعة من الموضوعات التي عالجها الشعراء في جميع عصور تاريخ الأدب. ولم يتخلف شعراء العربية من بداية تاريخ أدبها في هذا المجال. فتناولوا الطبيعة، واتجهوا إلى مظاهرها في شعرهم، ووصفوها وصفا دقيقا بارعا، وفطنوا إلى أماكن الحسن فيها وتغنوا بجمالها.

ولكن يلاحظ في أعمالهم أنهم اعتنوا بالتسجيل التصويري والوصف المادي البحت للطبيعة فقط. ومن أمثلة ذلك، أن ابن خفاجة الأندلسي، وهو شاعر مبدع، يقول في الطبيعة:

لله نهر سال في بطحاء أشهى ورودا من لمى الحسناء

متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه مجرٌّ سماء

قد رق حتى ظُنَّ قرصا مفرغا من فضة في بردة خضراء." [٢١]

يقول أحمدي شارحا الأبيات المذكورة أعلاه:

" ... ابن خفاجة في هذه الأبيات اعتنى بالشكل الخارجي للطبيعة ولم يلتفت إلى روح الطبيعة ذاتها ويسقط عليها من إحساسه وعواطفه ما يجعلها كائنا حيا ترثو لحاله عند الحزن والألم". [٢٢]

[٢١] ابن خفاجة الأندلسي، إبراهيم بن أبي الفتح، لا تا، *الديوان*، تحقيق عمر فاروق الطبّاع: دار القلم: ص ١٢؛ نقلا عن: أحمدي، عبد الحميد، مظاهر رومانسية في شعر أبي القاسم الشابي، ص ١٤ (أحمدي لاحقا).

[٢٢] أحمدي، مصدر سابق، ص ١٤.

والآن نتحدث عن رأي الشابي, مؤلف كتاب *"الخيال الشعري عند العرب"* في علاقة الإنسان بالطبيعة في مختلف أدوار التاريخ وموقفه من تعامل الشعراء العرب في العصور ما قبل العصر الحديث مع الطبيعة. فيرى الشابي أن الإنسان هبط الأرض لا يملك غير حسه, ونفسه, وقلبه وشعوره. أما عقله فما زال يحلم في مهد الحياة, فكأن له من مشاهد الكون ومظاهر الطبيعة ألغازا ومعاني خفية تبدو له ملتفة في ثوب من ضباب كما تبدو الذكريات البعيدة في زوايا القلوب, وكلما حاول إمساكها توارت عنه كما تتوارى الأشباح. وكان فيما بينها كالنائم التائه في أحلام الليل ورؤاه تبهجه هذه وتبكيه تلك وتفزعه واحدة وتطمئنه أخرى, ولم يكن له في تلك الأيام عقل قوي وفهم ثاقب؛ بل كان عقله ضعيفا لم تجربه الحياة والخطوب.

بيد أن الإنسان لم يكن خامد النفس وهامد الحس حتى يتغاض عما حوله ويقنع بالجهل والصمت, بل كان قوي المشاعر متحفز الخيال. فذهب يعلل مظاهر الكون بما شاء الشعر أن يذهب, وأخذ يفسر تعابير الطبيعة بما يملي عليه الخيال, دون أن يظن قط أنه سادر في الخيال بعيد عن الحقيقة؛ بل كان واثقا من أن ما وصل إليه هو في الصميم من الحق [٢٣].

وبعد ذلك يقول الشابي شارحا أهمية الطبيعة في خلق الشعر:

"أما ذهبتم في يوم من أيام الربيع الحالمة إلى بعض ضواحي المدينة, حيث البرية المهتزة الناضرة والغاب المونق الجميل؟ أما رأيتم ذلك البلبل الأنيق

[٢٣] يراجع: الشابي، أبو القاسم، *الخيال الشعري عند العرب*، ص ١٣-١٤، (*الخيال* لاحقا).

المتنقل بين الغصون المورقة, يترنم بأغاريده الرقيقة الشجية؟ أما أبصرتم تلك القُبَّرة الرشيقة المتخطرة بين مخارف الأشجار وحول مسارب الحقول تتغنى بتلك الأناشيد العذبة الطاهرة؟ أما شاهدتم في ضوء النهار تلك الفراشة الجميلة ترفرف حول الأعشاب البليلة, وتلك النحلة الهاجزة تحوم بين الزهور السكرى بأنوار النهار؟ أما ساقطت إليكم ذات يوم نسمات المساء الوادعة ذلك الصوت الفضي الجميل المتجاوب في ظلام الغاب؟

ثم أحسستم إذ ذاك وأنتم بين أحضان الطبيعة بذلك الشعور القوي الغامض الثمل يستحوذ على مشاعركم وتستولي على نفوسكم فيجعلها أدنى إلى الخلود منها إلى هذا العالم الفاني؟ ستقولون: بلى! [٢٤]"

والسؤال الآن: ما هي القوة الساحرة التي تسكر كل شيء وتعبث بكل شيء؟ فيجيب الشابي نفسه عن هذا السؤال: إنها الروح الإلهي النبيل الذي يبصره الناس في السماء, والماء, والنور, والفضاء, والوردة الناضرة, والنسمة الطائرة, وفي حلة الموج ووميض النجوم. "إنه الجمال الخالد المعبود الذي أحس به أهل بابل فعبدوه في (عشتروت) وشعر به اليونان فقدسوه في (أفروديت) واستفز قلوب الرومان فمجدوه في (فينس) وأقامت له الإنسانية كلها معابد المجد في أعماق القلوب ..." [٢٥]

[٢٤] *الخيال*، مصدر سابق، ص ٢٧.

[٢٥] *الخيال*، مصدر سابق، ص ٢٨.

ويرى الشابي أن الجمال هو الذي نبه الطائر على التغريد، وأيقظ الفراش فحوم، واستخفت النحلة بين الرياض، واتخذ من نفوس الناس هيكلا شعريا يعبدونه وهم لا يشعرون. والجمال هو الذي أنطق الشعراء بالأناشيد الخالدة المتغنية بجلال الكون ومجد الحياة.

وفي رأي المؤلف، لولا هذا الجمال المبثوث في مظاهر الكون وطواياه لاتخذ الناس سبيلا آخر غير الذي نعرفه ولحرم العالم من ثمار خالدة أنتجتها العقول. [٢٦]

فمثل هذا الجمال الطبيعي الذي يستفز كوامن الحس ويهز أدق أعلاق الشعور في نفوس الناس إذا خلوا إلى أحلامهم بين أحضان الطبيعة، هو القسطاس العادل لوزن نفسيات الأمم وشاعرية الشعوب؛ ليعلم مقدار قوتها وضعفها وصحتها أو فسادها. وإن على حسب ما في الإقليم من جمال وروعة تكون شاعرية الأمة، فإن كان وسطها الطبيعي بهيجا نضيرا كانت شاعرية الأمة خصبة منتجة، وإن كان كالحا مقشعرا كانت كزة مجدبة. وبكلمة أخرى: إن على طلاقة الجو أو قطومه تكون نفسيات الأمم والشعوب؛ فإن كان الجو طلقا ضحوكا، كان روح الأمة مفراحا مرحا، وإن كان الجو جهما عبوسا كان روح الأمة داجيا مكتئبا. ولماذا لا يكون للوسط الطبيعي أثره الفعال في تكوين نفسيات الأمم وطبعها على غراره وقد تحقق العلماء أن له الأثر القوي في خلق المزاج الفردي وتكوينه [٢٧]. وطبقا للقياس المذكور، شاعرية الأمة العربية شبيهة كل الشبه بالوسط الطبيعي الذي نمت وتدرجت فيه، فبما أن الأمة العربية قد عاشت في أرض

[٢٦] يراجع: *الخيال*، مصدر سابق، ٢٨.

[٢٧] يراجع *الخيال*، مصدر سابق،ص ٢٨.

محرومة من الجمال الذي يستفز المشاعر ويؤجج الخيال؛ لأنها قطعة عارية قاحلة لا تبصر العين فيها غير الموامي المقفرة الموحشة والصحارى الضامية المترامية, وقد يعثر الطرف فيها على رقعة يهتز فيها النبات أو جدول يتدفق بين الرمال أو غدير بين الصخور العارية. وبما أن الأمة العربية قد عاشت كذلك فينبغي أن تكون شاعريتها قريبة من الأرض كل القرب فيها ما فيها من ضياء وإشراق ومن بساطة وسذاجة [٢٨].

نظرة الشعراء العرب إلى الطبيعة في أدوار اللغة العربية المختلفة:

يشرح الشابي نظرة الشعراء العرب إلى الطبيعة في أدوار العربية المختلفة: وهي الدور الأموي, والدور العباسي, والدور الأندلسي وحظهم من الخيال الشعري. ويقول المؤلف عن الدورين الجاهلي والأموي: "كانا خاليين أو كالخاليين من الشعر الذي يتغنى بمحاسن الكون ومفاتن الوجود ويشبب بجمال الطبيعة وسحر الربيع" [٢٩].

وصفهما :"كالخاليين"؛ لأنه يوجد في شعر هذين العصرين شيء من ذلك ولكنه نادر, ثم إنه على ندوره لم يكن من هذا النوع الذي يشتعل خيالا وحسا, ويتألق جمالا وفنا والتي تحس النفس من ورائه بنشوء الشعر وتلهب العاطفة؛ لأنه لم يكن يذكره الشاعر في القصيد بسبب استغوائه الشاعر واستهوائه شعوره, بل ذكره الشاعر على سبيل الاستطراد وسوق الحديث أو يستعيد بذاكراته, ما مر له

[٢٨] يراجع: *الخيال*، مصدر سابق،ص ٢٨-٢٩.

[٢٩] الخيال، مصدر سابق،ص ٢٩.

في ريق العمر وانبلاج الشباب من لذة شائقة واغتباط أمين , ثم كيف عصف الدهر بذلك الشمل الجميع فأصبحت مراتع اللهو ومساحب أذيال الصبا وملعبا من ملاعب الريح وملهى من ملاهي الربيع أو يحكي حديثا من أحاديث محبوبته فيتعرض عرضا لذكر الموضع الذي كانت فيه عند ذكر الحديث.

بيد أننا نجد في شعر هذين العصرين, شيئا من الشعر الطبيعي الجميل الذي يمثل مظاهر الطبيعة ويصور البرق, والرعد والسحاب, ولكننا عند قرائته لا نحس فيه روح الشاعر الملتذة المعجبة ولا نسمع صوتا من أصوات قلبه, وإنما هي صور متتابعة يعرضها الشاعر عرضا أمينا, وقد لا تخلو في عرضها من أناقة وطرافة [٣٠].

وبعد سرد أمثلة كافية , يقول الشابي:

"... أدب هذين العصرين قد كان لا يعرض لوصف المناظر الطبيعية إلا إذا دعت إليها الضرورة دون أن يسهب في الوصف ويشبع القول, ... وإذا تحدث عن ظواهر الطبيعة أسهب في القول وأطال البيان. ولكنه في كل ذلك لا يتحدث عن الطيبعة بشغف الشاعر وخشوع المتعبد, بل يتناولها تناول القاص الذي لا يحفل بجلال المشهد أو جماله, وإنما الذي يهمه هو أن يصفه كما رآه, دون أن يخلع عليه حلة من شعوره أو عبقا من عواطفه" [٣١].

وإن لهذا علته المعقولة. فقد عاش العرب في وسط لا يعرف سحر الجمال الطبيعي, فلم يتحدث أدبهم عن هذا الجمال, وكيف يتحدث عنه وهو لا يعرفه؟

[٣٠] يراجع: *الخيال*، مصدر سابق، ص ٢٩-٣١.

[٣١] *الخيال*، مصدر سابق،ص ٣١.

ثم إنه لم يتحدث عن ظواهر الطبيعة بلهجة المعجب المأخوذ؛ لأن الطبيعة لم تخلع على أرضهم من نظارة الحسن ما يحرك في قلوبهم أدق وشائج الحس ويفتح قلوبهم لتذوق ألوان الجمال ... فظلت قلوبهم موصدة لا تعرف هاته اللذة ولا تفقه ذلك الشعور. علاوة على ذلك, إنهم لم يختلطوا بغيرهم من شعوب الأرض اختلاطا كبيرا من شأنه أن يلطف الطبع ويرقق المزاج [٣٢].

"وإذن فقد كان الأدب العربي في هذين العصرين خاليا من الشعور بجمال الطبيعة والحديث عنه إلا أصواتا ضئيلة خافتة تنطلق من حين لآخر كغمغمة الحالم الذي لا يفقه ما يقول. وكان العرب واقفين أمام مشاهد الكون, لا وقفة المتهيب الخاشع ... بل إنها وقفة الأخرس الذي لا ينطق, والأعمى الذي لا يبصر أضواء النهار" [٣٣].

وكذلك ظل الأدب العربي, في رأي المؤلف, حتى أظل العصر العباسي, فوجدت عادات, وأخلاق وأمزجة, وطباع لم تألفها العرب واصطبغت حياة المسلمين بصبغة قوية مشتركة متباينة تكونت منها حضارة جديدة ناعمة من كل ما عرف الفرس, والروم, والمسلمون من فكر, وطبع ودين ما ترك على النزعة العربية الجافية أثرا شديدا. علاوة على ذلك, أتقن كثير من الفرس والروم اللغة العربية ونظموا فيها الشعر بأمزجة غير عربية وأذواق غريبة عن طبائع العرب. وبدأ نبغاء

[٣٢] يراجع: *الخيال*، مصدر سابق،ص ٣٢.

[٣٣] *الخيال*، ص، ٣٢ مصدر سابق،.

الشعراء العرب يسكنون العواصم والمدن واستبدلوا بشظف العيش وغُنجُهِيّة البداوة, غضارة الحضر ورقة المدنية المترفة, فعاشوا في أوساط جميلة [٣٤].

ويقول الشابي عن لون وطبيعة الشعر الذي نشأ وتولد في هذا الوسط الجديد وهذه البيئة المختلفة عما قبلها:

"وفي هذا الوسط المترف الذي تغير فيه كل شيء, شب ذلك الفن الطبيعي الوليد, الذي يتغنى بسحر الطبيعة في مختلف المظاهر وشتى الألوان, فأصبحنا نسمع من الأدب أصواتا لم تألفها أسماعنا من قبل فيها رقة وعذوبة, وفيها طلاوة وحلاوة" [٣٥]. ويمثل لذلك بأبيات من شعر أبي تمام, والبحتري وابن الرومي [٣٦].

بيد أن هذا الفن الوليد, كما يرى الشابي لم يتفش في الأدب العباسي مثل تفشيه في الأدب الأندلسي؛ لأن بلاد الأندلس كانت أجمل وأروع.

ويقول الشابي عن انتشار الفن الوليد المذكور آنفا في الأندلس:

"فقد تفشى هذا الأدب الطبيعي الجميل في البلاد الأندلسية تفشيا عظيما حتى كاد يسيطر على غيره من فنون الشعر, وحتى أصبحت الطبيعة هي الحلم البهيج

[٣٤] يراجع: *الخيال*، مصدر سابق، ص ٣٢.
[٣٥] *الخيال*، مصدر سابق،ص ٣٢.
[٣٦] يراجع: *الخيال*، مصدر سابق، ص ٣٣-٣٤.

الذي يملأ قلوب الشعراء في سكرات الخيال, وهي الأغنية المحببة التي يترنمون بها في أمسياتهم الجميلة الحالمة ولياليهم العذبة الفاتنة" [٣٧].

ولكنه يرى أيضا أن الفن الطبيعي في الأدب العباسي"أبعد نظرا وأعمق خيالا وأدق شعورا منه في الأدب الأندلسي. رغما عن أن الأدب الأندلسي أحفل بهذا الفن من الأدب العباسي وغيره ورغما عن أن الأدب الأندلسي أنصع ديباجة وأرقى أسلوبا وأدق تصويرا, ورغما عن أن البلاد الأندلسية أشد جمالا وأعظم روعة من البلاد الشرقية التي أنبتت ذلك الأدب العباسي الجميل؛ فإنني لأجد من صدق الشعور وقوة العاطفة عند البحتري وأبي تمام وابن الرومي ما لا أجده عند ابن خفاجة وابن زيدون وغير هذين من شعراء الأندلس" [٣٨].

ويستشهد المؤلف على ذلك بأبيات لكل من أبي تمام, والبحتري وابن الرومي [٣٩].

ويعلل لذلك أن الأدب الأندلسي قد نشأ في عصر توفرت فيه أسباب الحضارة توفرا منكرا. فانغمست النفوس في حمأة الشهوات انغماسا أمات بها العواطف الهائجة وأخمد نوازي الشعور. ولذلك أصبحت الطبيعة في أنظارهم وسيلة جامدة من وسائل اللذة لا منبعا خالدا من منابع الإلهام. ويسمي الشابي أسباب الحضارة هذه بـ"الأنوثة". فيقول: "وهكذا أخمدت تلك الأنوثة المترفة توهج

[٣٧] *الخيال*، مصدر سابق،ص ٣٤.
[٣٨] *الخيال*، مصدر سابق، ص ٣٤-٣٥.
[٣٩] يراجع:*الخيال*، مصدر سابق،ص ٣٥.

الشعر وضياء القرائح, على أنها هذبت من الألسنة ورققت أساليب الخطاب. فكان الشعر الأندلسي رقيقا طليا ولكنه قليل الحظ من عمق الشعور" [٤٠].

ويقول المؤلف عن حظ الطبيعة والشعور في الأدب الأندلسي بعد نقل أبيات لابن خفاجة الأندلسي, وابن زيدون, وإحدى شواعر الأندلس وا بن سهل: "يسعى الأدب الأندلسي كله: ديباجة غضة ناعمة وتعابير عذبة ناصعة ووصف دقيق جميل, ولكن ليس وراء ذلك عاطفة حادة أو إحساس عميق" [٤١].

مقارنة الشابي بين الطبيعة في الشعر العربي والشعر الغربي:

بعد بحثه عن الطبيعة والخيال في الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي, يقارن الشابي بين نظرة الشعراء العرب والشعراء الغربيين إلى الطبيعة والخيال, وينقل كلامين للامرتين وجيتيه, ويسائل: هل توجد في شعراء العربية هذه الروح القوية المظطرمة الشاعرة, هذه الروح التي تنظر إلى الطبيعة كلها ككائن حي يترنم بوحي السماء فيثير في حنايا النفوس ما تثيره أنات القيثارة في يد الفنان الماهر من هواجع الفكر وسواجي الشعور, هذه الروح اليقظة التي تحس بما في قلب الطبيعة من نبض خافق وحياة زاخرة تفيض على مظاهر الكون, هذا الجمال الإلهي الوضيء, فإذا الحياة بأسرها صورة من صور الحق, وإذا العالم كله معبد لهذه الحياة [٤٢]؟ ثم يقول:

---

[٤٠] *الخيال*، مصدر سابق، ص ٣٦.

[٤١] *الخيال*، مصدر سابق، ص ٣٨.

[٤٢] يراجع: *الخيال*، مصدر سابق،ص ٣٩.

"أي النظرتين إلى الطبيعة أعمق؟ وهل عندنا في العربية مثل هاته الروح القوية الشاعرة؟ ولكني أقول كلمتي, وهي أن النظرة العربية إلى الطبيعة بسيطة إزاء هذه مهما بلغت من العمق والشعور, وأن تلك الكلمات الأخيرة التي قالها جيتيه هي الأغنية الخالدة التي ترددها النفوس الشاعرة في أعماقها كلما شاهدت بهجة الكون وجلال الوجود. أما شعراء العربية فلم يعبروا عن مثل هاته الإحساسات الشعرية العميقة؛ لأنهم لم ينظروا إلى الطيبعة نظرة الحي الخاشع إلى الحي الجليل, وإنما كانوا ينظرون إليها نظرتهم إلى رداء منمق وطراز جميل لا تزيد عن الإعجاب البسيط ... وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق في قلب الطبيعة إلا إحساسا بسيطا ساذجا خاليا من يقظة الحس ونشوة الخيال, وهو ذلك الإحساس الذي تشاهدون أثره في شعر البحتري, وابن الرومي, وأبي تمام وبعض شعراء آخرين" [٤٣].

ويلخص محمد مصطفى بدوي ما كتب الشابي عن نظرة الشعراء العرب القدامى إلى الطبيعة قائلا:

"هو [الشابي] يراجع معالجة الشعراء العرب الطبيعة في العصرين: الجاهلي والإسلامي كليهما, ويقارنها بمعالجة الشعراء الأوربيين للطبيعة في شعرهم بتقديم نموذجين من كلام جيتيه, ولامررتين حتما) [٤٤].

[٤٣] *الخيال*، مصدر سابق،ص ٤٠.

[٤٤] Badawi, op.cit. p. 159

نرى من المناسب أن نعلق هنا على نقد الشابي لندور أو انعدام معالجة الطبيعة في الشعر العربي القديم ومقارنتهما بمعالجة الشعراء الأوربيين للطبيعة في العصر الحديث فنقول: عاش الشاعر لامرتين في القرن التاسع عشر وعاش جيتيه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بينما عاش شعراء العربية أمثال البحتري ، وابن الرومي وأبو تمام في القرن التاسع. فهل من المناسب أن يقارن أبو القاسم الشابي بين خصائص الشعر لشعراء العربية وشعراء أوربا وتفصلهم أزمان متباعدة, وقرون كثيرة وعصور متباينة؟ نرى أن ذلك لا يناسب؛ لإن العادات والتقاليد والأمزجة, والنزعات والتيارات تختلف باختلاف العصور. بيد الشابي لو قارن كلام شعراء العربية الذين عاشوا في عصر لامرتين وجيتيه, لصحت مقارنته وأصاب في رأيه. ولا يصح نقد الشعر العربي في العصر القديم على أساس الشعر الأوربي الحديث.

ويؤيد رأئي ما قاله طمليه في هذا الصدد:

"إن مقارنة الشاعر بين شعراء عرب عاشوا في العصر الوسيط بشعراء غربيين عاشوا في القرن التاسع عشر, اختلفت بيئاتهم الطبيعية, والاجتماعية والنفسية هي مقارنة ليست عادلة, لم تراع تأثير الزمان والمكان" [٤٥].

شرحنا في السطور السالفة موقف الشابي من وجود الطبيعة أو انعدامها في الشعر العربي القديم, ورأينا كيف نقد الشابي أجداده العرب لأنهم لم يتناولوا الطبيعة أو قليلا ما تناولوها وحتى إذا وصفوها لم يمزجوا مشاعرهم معها.

[٤٥] طمليه، فخري أحمد حسن، *أبو القاسم الشابي: دراسة في حياته وأدبه*، ص ٩٩، (طمليه لاحقا).

فنقدهم وعابهم بأنهم لم يعالجوا الطبيعة في كلامهم مثلما تناولها الشعراء الأوربيون الجدد في شعرهم. فهل كان الشابي ساخرا من أجداده؟ نجيب على هذا السؤال في الأسطر التالية:

هل كان الشابي ساخرا من الأجداد؟

يقول ابو القاسم الشابي في كتابه الموسوم بـ"*الخيال الشعري عند العرب*" :

"... لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرفة, ملؤها العزم والشباب ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة. أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة ... [٤٦]"

فهل سخر الشابي بكلامه المذكور أعلاه من آبائه وأجداده: كلامهم وشعرهم وأساليبهم؟ لا, ليس الأمر كذلك. فيقول كرّو في هذا الصدد:

"وصحيح أن الشابي كان ثائرا على السخافة المستحكمة والعقول المحنطة, والتقاليد الجامدة والمقاييس المتحجرة. وصحيح أنه كان مجددا جريئا وبناء قديرا, يملك سلاح التجديد, ويبني لنفسه وأمته حياة جديدة ومجدا طريفا, ويعيش في حاضره ولغده, لا في ماضيه ولأمسه. ولكن ليس بصحيح أن الشابي كان --- في لحظة من حياته --- ساخرا من أجداده أو تراث هؤلاء الأجداد" [٤٧].

ويؤيده ما نجد في أحد ردود الشابي على أحد ناقديه قائلا:

---

[٤٦] *الخيال*، مصدر سابق، كلمة المؤلف.

[٤٧] كرو، مصدر سابق،ص ٥٧.

"... وبعد أنا أحب أن يعلم الأديب الفاضل [٤٨] إنني إذا كنت أدعو إلى التجديد الأدبي وأعمل له, فإن ذلك لا يدفعني إلى الهزء والسخرية بآداب الأجداد – كما قد حسب – بل إنني لأومن كل الإيمان بما فيها من جمال فني وسحر قوي, وأعتقد أنها قد آتت في عصورها الحية لأجدادنا كل ما طمحت إليه أشواقهم من غذاء معنوي دسم, ولكنني أومن إلى جانب ذلك أن في الحياة آفاقا مجهولة ساحرة, غير ما في الأدب العربي من آفاق, وإن هذا الأدب إذا كان قد سد خلة آبائنا الروحية, فإنه لعاجز كل العجز عن أن يشبع ما في أرواحنا من جوع, وعطش وطموح. وإنه إذا كان لزاما علينا أن نعجب بهذا الأدب ونفخر به, كحلقة من سلسلة ذاتيتنا العربية, وكمنجم ذهبي نرجع إليه كلما أردنا أن نصوغ لأفكارنا حليها الساحر الجميل, فإن ذلك الإعجاب لا ينبغي أن ينقلب في نفوسنا إلى تقديس, فعبادة, فجمود فإطباق لأبصارنا عن كل ما في السماء من أشعة ونجوم.

هذا رأيي وهذا ما دعوت إليه في كتاب *"الخيال الشعري عند العرب"* وما أحسب في مثل هذا شيأ من الغلو, أو الإغراق أو تنقص أدب الأجداد أو الزراية عليه" [٤٩].

جواب الشاعر هذا, جواب يقبله العقل السليم ويؤيده الفهم الصحيح. فلم يكن الشابي ساخرا من الأجداد بنقده إياهم.

[٤٨] هو الأستاذ مختار الوكيل الشاعر المصري المعروف. وقد كتب نقدا لكتاب *"الخيال الشعري عند العرب"* ونشره بمجلة *أبولو*، ص ٨٣٣ س ١٩٣٣. (كرو، في هامش كتابه *الشابي: حياته - شعره*).

[٤٩] من رد الشابي على ناقده مختار الوكيل الشاعر المصري المعروف بمجلة *أبولو*، ص ١٧٢، سنة ١٩٣٣؛ نقلا عن: كرو، مصدر سابق، ص ٥٨.

نريد أن ننتقل ألآن من موضوع موقف الشابي من أدب الأجداد إلى موضوع أثر الآداب الأجنبية على أبو القاسم الشابي.

تأثير الآداب الأجنبية في شعر الشابي:

يرى كثير من النقاد أن أبو القاسم الشابي تأثر كثيرا بالآداب الأجنبية في تعامله مع الطبيعة وكتابة الشعر فيها. فقرأ الشابي كتابات الشاعر الفرنسي ألفريد دي موسيه، والشاعر الألماني غوته كما درس كلام لامرتين وفكتر هِيْوغو والأدب العربي في المهجر وتأثر بكل ذلك.

يقول طمليه في هذا الصدد:

"مع أن الشابي كان يجهل اللغات الأجنبية إلا أنه ألح على قراءة ما ترجمه منها أعلام الأدب العربي في مصر من أمثال العقاد، وإبراهيم ناجي، والمازني وغيرهم. فكثيرا ما قرأ لشاعر الرومانسية "لامارتين" وقرأ ما ترجم من آثار "دي موسي" وهوجو وغيرهم. وكان لقراءاته هذه أبعد الأثر في تجربته الشعرية، بل أنه تحيز لهؤلاء، واتخذهم في كثير من الحالات قدوة له ... [٥٠]".

ومن أغلب الظن أن هذا التأثير يشتمل أيضا على تجربته لكتابة الشعر في الطبيعة وحبها ومزج مشاعره معها؛ لأن لامرتين تغنى في شعره بالطبيعة، ودعا القارئ إلى الفرار من قسوة الناس وجفائهم وخبثهم، ومكرهم واللجوء إلى الطبيعة

[٥٠] طمليه، مصدر سابق،ص ١١٩.

التى أبوابها مفتحة دوما لطمأنته, وإراحته, وإزالة حزنه وكآبته, فهي كالأم الودود التي لا تستطيع أن تهجر ولدها مهما كان خبيثا أو شريرا" [٥١].

ومثل ذلك يقال في تأثير فكتر هيوغو على الشابي؛ لآن هيوغو أيضا عالج الشعر الطبيعي ومن أعماله في الطبيعة مجموعة *"أوراق الخريف"* [٥٢]. ومن قصائده في الطبيعة, "نشوة الطبيعة" و"مساء في فصل البذار" [٥٣].

"كان الشابي يعجب بكبار الشعراء الغربيين ويكبر من شأنهم, وأشد إعجابه كان لجوتة الألماني ولامرتين الفرنسي" [٥٤].

ومثل ذلك يقول طمليه:

"إن الشاعر متأثر بآراء المدرسة الرومنسية التي كان لامرتين علما من أعلامها, والتي تسبغ على الطبيعة الحياة, وتدير معها حوارا تخاطبها, وتسمع همسها, وتذوب فيها, وتشخص مناظرها, ولكن الأدب العربي في عصوره لم يعدم نماذج من ذلك ..." [٥٥].

لكن طمليه لم يقدم أي دليل على وجود نماذج للشعر الطبيعي في الأدب العربي في عصوره, الذي تحدث عنه الشابي والذي وُجد في كلام شعراء الغرب.

---

[٥١] يراجع: رسالتنا للدكتوراه الموسومة بـ*"الرومانسية في الشعر العربي والشعر البنغالي: دراسة مقارنة"* ، ص ٩٧، (رسالتنا للدكتوراه لاحقا)

[٥٢] رسالتنا للدكتوراه، مصدر سابق،ص ١٠١.

[٥٣] site.iugaza.edu.ps/kghonem/files/2010/02/mathaheb_**lda**_algharb.doc Date: 15/04/2014

[٥٤] كرو، مصدر سابق،ص ٧٢.

[٥٥] طمليه، مصدر سابق، ص ٩٩.

إن مما قرأ الشابي "أهم ما ترجم من كتب الآداب الغربية, حتى استوعب تاريخها, وفنونها وجميع أطوارها, وكان يعيد باستمرار قراءة كتب "لامارتين" و"جوته" ويعجب بهما إعجابه بالمعري وابن الفارض" [٥٦].

فلا بد أن شعر لامارتين في الطبيعة أثر في الشابي الذي استخدم الطبيعة في شعره في صور شتى وأغراض متعددة.

وأثر في الشابي الأدب الأوربي أيضا. فيقول عبد العزيز النعماني:

"هذا هو الشابي, الإنسان, الشاعر, الذي تمخضت عنه بيئة المغرب العربي, وأنضج أدبه من خلال اطلاعه على التراث الأدبي العربي وخلاصة الأدب الأوربي الفرنسي المترجم" [٥٧].

ويقول غاليله رافائل عن أثر الأدب الأوربي والأدب العربي في المهجر على الشابي:

"قرأ [الشابي] شعراء العرب الرومانسيين في المهجر, ولا سيما أمين الريحاني وجبران خليل جبران اللذين تركا أثرا كبيرا في أعماله" [٥٨].

ويرى كرّو أن أثر الأدب المهجري في طريقة تفكير الشابي وأدبه يكاد يفوق كل عامل سواه. فعرف عنه أنه كان يكثر قراءة الأدب المهجري وحفظ أشعاره في سني الدراسة الأولى وهي دون الخامسة من العمر. وليس من شك في النفس

[٥٦] كرو، مصدر سابق، ص ٤٨.
[٥٧] النعماني، مصدر سابق،ص ١٧،
[٥٨] Raphael, op. cit.

البشرية في هذا العمر تتأثر أكثر مما سواه بالعوامل, فيرتسم فيه كل صورة من صور الوجدان والفكر وكل طبع من طباع السلوك والأخلاق [٥٩].

"والأدب المهجري يمتاز بتبرمه الناعم وثورته الجامحة, وصوفيته الحالمة, وضروب شتى من ألوان المثالية المجنحة في الحب, والحياة, والميول والآمال. وهي إلى ذلك, معروضة فيه بشكل ساحر أخاذ كأنها عرائس الفردوس أو عذارى الأساطير, تتهادى بثيابها الناعمة :كأزهار الروابي وأوراد البساتين, باحثة عن التائهين في آفاق الوجود, الناقمين على أوضاع البشرية ومساويها المخزية, الراغبين عن مظاهر الحياة الزائفة وألوانها الخادعة, الناشدين الحب الخالص من القصد والغاية, الباحثين عن الحياة المجردة من "أنا" و"أنت" و"لي" و"لك".

هذه الألوان البراقة والصور الراقصة الفاتنة, قد خليت [٦٠] نفس الشابي في طوره الأول وقادت خياله المتوقد وحسه المرهف إلى معابد الطبيعة الساحرة وهياكلها الغريبة, حيث أسمعته أغانيها الحلوة الناعمة, وكشفت له عن مواطن الجمال والفتنة العارمة في نفسها, وأطعمته ثمارها المسحورة وأسكرته برحيق أزهارها وورودها. فإذا هو ثمل بخمرة الجمال وفتنة الوجود, هائم بحب الحياة المجردة كالزهور, العارية كالأنهار, الحالمة كالورود في نسائم الأسحار, المتغنية كأطيار الغابات وبلابل الحقول, الراقصة كأمواج البحار وسنابل الزروع. فرتل أغانيها بخشوع, وردد أنغام السماء على مسامع الكون, وحرق في معبد الحياة و"هيكل

[٥٩] يراجع: كرو، مصدر سابق،ص ٧٠.

[٦٠] خليت: هكذا في الأصل. ونرى أن الصواب: خلبت.

الحب" أقدس ما يملك من قلب وعقل ووجدان. فإذا شعره أنشودة ساحرة في مسامع الأيام والأجيال, خالدة على مر الأزمان والعصور" [٦١].

والآن نتحدث عن كيف وقف الشابي مع الطبيعة وتناولها في شعره.

وقفة الشابي مع الطبيعة:

يقول غائل رافائيل عن شعر الشابي:

"كتب الشابي شعر الطبيعة, والحب, والوطنية والثورة" [٦٢].

ويقول عن معالجة الطبيعة في شعره: "تكمن مساهمة الشابي المتميزة في الشعر العربي بشكل رئيس في الطريقة التي يستخدم بها الصور الطبيعية لغرس الرؤية المبتكرة والثورية في شعره" [٦٣].

أما كيف وصف الشابي الطبيعة في شعره أو كيف وقف معها؟ فيقول طمليه في هذا الصدد:

"حين تصدى الشابي للطبيعة يصفها لم يقف منها موقف المشاهد يصف مناظرها الخارجية, إنما تعمقها وشخصها, وكثيرا ما ناجاها وحاورها. فعلمته فلسفة الحياة, وعلمته الطهر والنقاء, ثم كثيرا ما لجأ إليها عندما أثقلت عليه الحياة, وحين لم يفهمه أهلها, فاعتبرها محرابها الذي يتعبد فيه ويهتدي فيها إلى

[٦١] كرو، مصدر سابق، ص ٧٠-٧١.
[٦٢] Gaelle Raphael, op. cit.
[٦٣] Gaelle Raphael, op. cit.

أسرار الكون، ومغالق الحياة، والشابي في هذا يتفق مع أساتذة المدرسة الرومانسية من أمثال روسو، وبيرون، وشاتوبريان، يرى الطبيعة مأوى ومسكنا لروحه ومشاعره التي تأذت وتألمت، , وهو إذا أوى إلى الطبيعة إنما يفعل هذا زهدا في دنيا الناس، وهروبا بمشاعره من أن تصطدم بحياة اليوم العادي" [٦٤].

ويرى يزيد مفتاح علي وحص أن أبو القاسم الشابي نفسه عنصر من عناصر الطبيعة وشعره إحدى صورها. فيصور في شعره غابات تونس الخضراء، وواحاتها، وصحاريها وشواطئها. ولحن شعر الشابي هو أصوات الطيور التونسية وحفيف أجنحتها. إنه يرى الطبيعة كائنا حيا له روح نجدها هادئة أحيانا ورهيبة ومضطربة أحيانا أخرى. وهي صديق الحب والمحبين وملجأ الروح المعذبة حيث تجد الراحة والطمأنينة. والطبيعة عالم يرجع بالشعراء الرومانسيين إلى عصر البراءة والطيبة بعيدا عن الواقع البائس للمجتمع. وغرضه من استخدام الطبيعة، هو التعبير عن أفكاره وعواطفه. هو يحب الحياة الطبيعية؛ لأنها تعطيه نوعا من السعادة وتخفف آلامه في الحياة. ولذا يريد أن يربط صور الطبيعة بالمعاناة الإنسانية [٦٥]. وقد رسم الشابي عديدا من صور الطبيعة بما فيها الصباح، والمساء، والليل والخريف في قصائده الرومانسية [٦٦].

ويرى الشابي أن النشوة التي تمنحها الطبيعة هي أجمل ما تمنحه كؤوس الراح، فيقول:

---

[٦٤] طمليه، مصدر سابق،ص ١٣٣.

[٦٥] مثل الشعراء الرومانسيين الآخرين الفرنسيين والإنغليز والبنغاليين

[٦٦] Wahas, Yazid Meftah Ali, Article ‘Images of Nature in the Poetry of Abu Al-Qasim Al-Shabbi, (Wahas: later on)

ما لنا والكؤوس نطلب منها نشوة, والغرام سحرٌ وسكرُ.
خّلِنا منك فالربيع لنا ساق وهذا الفضاء كأسٌ وخمرُ.
نحن نغدو بين المروج ونمسي ونغني مع النسيم المغني
ونناجي روح الطبيعة في الكون ونصغي لقلبها المتغني [٦٧].

ولهذه النشوة والمرح والسرور الذي يجده الشابي من الطبيعة, مزج أحاسيسه معها مثل الشعراء الرومانسيين الآخرين. "واتخذ من الغاب والعصفور والزنبقة والبلبل مستودعا لأسراره وهمومه؛ لأنه لم يجد أفضل من الطبيعة يلجأ إليها ويبث شكواه [٦٨]. ويعود ذلك لعدة أمور أهمها: ولادة الشاعر في منطقة جبلية وتنقله المستمر منذ صباه من منطقة إلى منطقة أخرى, الأمر الذي غذّى حبه للطبيعة ومظاهرها الخلابة, أضف إلى ذلك تنكره للحياة الاجتماعية وتقلبات الناس, ومكرهم, وخداعهم مما جعله يرى الطبيعة مدعاة سكون واطمئنان نفسي" [٦٩].

ويقول النعماني عن مزج الشابي مشاعره مع الطبيعة:

"رأى [الشابي] أن الإنسان ينبغي أن يكرس حياته للجمال والفن, من خلال أقطاب دلالية ...

[٦٧] *أغاني الحياة* – ديوان شعر أبي القاسم الشابي، ص ١٦٥ (*أغاني الحياة* لاحقا)؛ و*ديوان أبي القاسم الشابي*، بتقديم وشرح أحمد حسن بسج، ص ١١٠، (بسج لاحقا).

[٦٨] خلافا للشعراء العرب في ما قبل العصر الحديث الذين وصفوا الطبيعة وصفا بحتا غير مازجين مشاعرهم بها وغير مُنطقين إياها عن أحاسيسهم، وخلجاتهم، وأحلامها وآلامهم.

[٦٩] البعيني، نجيب، ٢٠٠٨م، *موسوعة الشعراء العرب المعاصرين*، بيروت: دار المناهل، ص ١٠٥؛ نقلا عن: أحمدي، مصدر سابق، ص ٧.

وأول هذه الأقطاب جمال الطبيعة. فقد نجح الشابي في أن يربط بين الحس المرهف ومظاهر الطبيعة الصافية" [٧٠].

ينشد أبو القاسم الشابي في شعره القوى الطبيعية. فيود الشاعر في قصيدته "النبي المجهول" لو أن له قوة الطبيعة بمناظرها المتعددة: قوة رياحها، وقوة شتائها، وقوة عواصفها وقوة أعاصيرها، يكبلها على رأس شعبه الذي تنكر له. فيقول:

ليتني كنت كالرياح فأطوي كل ما يخنق الزهور بنحسي
ليتني كنت كالشتاء، أغشي كل ما أذبل الخريفُ بقرسي!
ليت لي قوة العواصف، يا شعبي فألقي إليك ثورة نفسي" [٧١].

وحين اعتزل شعبه لجأ إلى الطبيعة لتقوم سيولها بحفر رمسه:

"ثم تحت الصنوبر الناضر الحلو تخط السيول حفرة رمسي" [٧٢].

ويتمنى الشابي في قصيدة "أحلام شاعر" أن يعيش بعيدا عن الناس وضوضائهم، في أحضان الطبيعة ليستمع إلى حديث فؤاده في سكون تام وبدون إحراج،

[٧٠] النعماني، مصدر سابق،ص ١٧.
[٧١] بسج، مصدر سابق، ص ٩٣-٩٤.
[٧٢] بسج، مصدر سابق، ص ٩٤.

ويفهم فلسفة الموت والحياة, والآزال والآباد ويعيش عيشة خالصة للفن والجمال [٧٣].

فضلا عن ذلك يصور الشابي المظاهر الطبيعية الحية أيضا. و "الشابي في قصائده لم يتوقف عند حدود المظاهر الطبيعية الصامتة بل تعداها إلى مظاهر طبيعية حية, والتفت إلى البلبل, والعصفور, والنحل والفراش وغيرها من هذه المظاهر" [٧٤].

فنراه في قصيدة "مناجاة عصفور", يخاطب العصفور ويبثه شكواه, فيقول:

"يا أيها الشادي المغرّدِ هاهنا ثملا بغبطة قلبه المسرور
غرّدِ , ففي قلبي إليك مودة لكن مودة طائر مأسور
هجرته أسراب الحمائم, وانبرتْ لعذابه جنّية الديجور ....
غرد, ولا ترهب يميني, إنني مثل الطيور بمهجتي وضميري,
أشدو برنّات النياحة والأسى مشبوبةً بعواطفي وشعوري
غرد ولا تحفل بقلبي, إنه كالمعزف المتحطم المهجور" [٧٥].

إن هذه الأبيات تدل على اندماج الشاعر في الطبيعة ومحاكاة لها في غاية الروعة والتصوير. إن الشاعر في هذه الأبيات يخاطب الطائر ويبثه شكواه ويحثه على التغريد. إنه يرى نفسه طائرا يغرد بصوت الكآبة والزفير, طائرا يغمره إحساس عميق غريب عندما يسمع صوت الطيور المتدفق من صميم قلبها المملوء حرارة

[٧٣] يراجع: قصيدة "أحلام شاعر" للشابي الواردة في *ديوان أبو القاسم الشابي*، بدراسة وتقديم الدكتور عز الدين إسماعيل، ص ٢٨٥.
[٧٤] أحمدي، مصدر سابق،ص ١٦.
[٧٥] *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ٥٥

وإخلاصا. إنه يرى سعادته وسروره في التحدث مع الطيور والاستماع لشدوها وتغريدها, والابتعاد عن الأناس الذين لا يرى فيهم إلا كل غادر وخبيث, جل همه أن يُرضِي نفسه ولو كان ذلك على حساب ظلم الآخرين [٧٦].

فيقول الشابي:

"آهٍ من الناس الذين بلوتهم فقلوتهم في وحشتي وحبوري!
ما منهم إلا خبيث غادر متربص بالناس شرّ مصير" [٧٧].

والآن نتحدث عن حب الرومانسيين للطبيعة. فما لا شك فيه, أن الشعراء والأدباء الرومانسيين أولعوا بالطبيعة [٧٨] والأرياف إيلاعا وأحبوا ساكنيهم حبا جما ورفعوا من شأنهم, فاختاروا أشخاصهم من القرى والأرياف. فيقول ورزورث: "آثرت الحياة الريفية الجارية؛ إذ في هذه الحالة تلقى عواطف القلب الجوهرية أرضا أكثر مواتاة لبلوغها درجة النضج, وأقل عسرا ... ولأن العادات في الحياة الريفية ترجع في الأصل إلى هذه العواطف الأولية, وهذه العواطف ـــــــــــ بفضل طابع الضرورة للمشاغل الريفية ـــــــــــ أيسر إدراكا وأبقى؛ ثم لأن عواطف الناس ـــــــ في تلك الحالة ـــــ هذه تكون وحدة مع صور الطبيعة الجميلة الخالدة" [٧٩]. وكان حب الطبيعة عند وردزورث بشكل خاص والرومانسيين بشكل عام

---

[٧٦] يراجع: أحمدي، مصدر سابق، ص ١٦-١٧.

[٧٧] *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ٥٥

[٧٨] https://resources.saylor.org/wwwresources/archived/site/wp-content/uploads/2013/07/ENGL203-Subunit-3.3.1-Romanticism-and-Nature-FINAL1.pdf
تاريخ الدخول: ٠٨-٠٤-٢٠١٤

[٧٩] Wordsworth, Preface to *Lyrical Ballads and Other Poems*, p. 3

"ينبوع الشعر الحق، ومصدر الخليقة الصحيحة. وبفضل تأمله الدائم في الطبيعة، وملاحظته الدقيقة للحياة الريفية، نفذ أدبه في صميم هذه الحياة؛ فصور مناظرها المختلفة في قوة وصدق،فكان يظل الساعات الطوال يحلم بين مناظرها ويتفهم أسرار جمالها" [٨٠].

يبدو من دراسة كلام الرومانسيين أنهم يروحون عن نفوسهم بمشاهدة المناظر الطبيعية الجميلة الساحرة الفاتنة [٨١]. ويتنزهون ويتمتعون بالسير على قطع الأرض المختلفة. فيقول روسو: كنت أضرب على غير هدى في الغابات والجبال ... لا أجرؤ على التفكير في شيء خوف أن تتقد جذوة آلامي" [٨٢]. ويقول بيرون: "لو أمكن أن تكون الصحراء موطن إقامتي، مع نفس واحدة تسيطر بجمالها علي! لو أمكن أن أنسى كل النسيان الجنس الإنساني، ودون أن أبغض أحدا لا أحب إلا هي! أيتها العناصر الكونية، يا من في صوتها القدسي وبين أحضانها أشعر بنشوة الهيام، أتستطيعين أن تهبيني مثل هذا المخلوق؟ ... في الغابة العذراء متعة، وفي الضفاف المنعزلة جذبة سحر، فهنا أناس حيث لا دخيل من الناس، بجانب البحار العميقة وموسيقا أمواجها. ليس حبي للإنسان قليلا. ولكن حبي للطبيعة أكثر"[٨٣] .

---

[٨٠] *الرومانتيكية*، ص ١٥٥.

[٨١] http://vb.mediu.edu.my/showthread.php?t=23008
تاريخ الدخول: ١٤-٠٢-٢٠١٤م

[٨٢] J. J. Rousseau, *Révries,* 4e Promenade;
نقلا عن: *الرومانتكية*، مصدر سابق، ص ١٥٢.

[٨٣] *The Complete Poetical and Dramatic Works of Lord Byron* (ed.) John Nichols and J.C. Jeaffreson, p. 48

يصيح الشاعر كيتس على الكلاسيكيين منكرا إهمالهم الطبيعة وإغفالهم التعبير عن مشاعرهم تجاهها, وناقدا تقليدهم للقدامى أشد النقد قائلا: "أيتها النفوس الآسية, كانت تهب نسمات السماء, والمحيط يدفع بموجاته المتراكمة, ولم تكونوا لتشعروا بها! وما زالت السماء تكشف عن صدرها الخالد, أنداء الليالي الصائفة تتجمع ليزدهي بها الصباح الباهر, واستيقظ الجمال, فما لكم لم تستيقظوا؟ كلا! كنتم أمواتا أمام هذه الأشياء التي لا تعرفونها, وكنتم حقا أسرى لقوانين أصابها العفن, رسمت على قاعدة حمقاء, وبفرجار ممتهن, حتى كوّنتم مدرسة من الحمقى ... ما أسهل الواجب, به حمل آلاف المحترفين القناع الشعري" [٨٤].

هل حقا كان الكلاسيكيون لا يشعرون بنسمات السماء عندما كان المحيط يدفع بموجاته المتراكمة؟ وهل حقا لم يحس الشعراء والأدباء الكلاسيكيون عندما كشفت السماء عن صدرها الخالد وأنداء الليالي الصائفة تتجمع ليزدهي بها الصباح الباهر؟ وهل كانوا حقا لا يعرفون هذه الأشياء؛ لأن أحاسيسهم ميتة؟ لا, ليس الأمر كذلك. فكل آدمي يحس بالجمال ويفرح بجمال الطبيعة ومناظرها الجذابة الخلابة تجذب قلوبهم وتأسر عقولهم, ولكن الكلاسيكيين لم يصفوها في كلامهم ولم يصوروها في شعرهم. فالإحساس بجمال الطبيعة شيء والتعبير عن هذا الإحساس شيء آخر. فالآدميون الذين لم يقرؤوا حرفا واحدا, يحبون المناظر الطبيعية ويتأثرون بها ويفرحون بها كما يروحون عن نفوسهم بها.

[٨٤] Sleep and Poetry, in: *The Complete Poetical Works and Letters of John Keats*, Cambridge Edition, (ed.) Horace E. Scudder, pp. 20-2

مثل هؤلاء الرومانسيين تماما أعجب الشابي بالطبيعة وأحب المناظر الطبيعية وقضى كثيرا من أوقاته في الغابات. فيقول النعماني عن قضاء الشابي الأوقات في رحاب الطبيعة:

"كان يعيش حياته بمقامات أشبه ما تكون بالمقامات الصوفية, فهو يعيش في ظلال الغاب والجمال حياة لم تقتصر على لحظات الكشف يقظة ومناما, بل امتدت لتشمل كل لحظات حياته, مرورا بالطبيعة, وانثيالا في رحابها, بروح طاهرة ضاربة في المقدس, متمكنة من الدنيوي والإنساني تمكنا واضحا" [٨٥].

يلخص كرّو مشاعر الشابي تجاه الطبيعة قائلا:

"أجال الشاعر بصره في أرجاء الكون, ومحاسن الوجود, فلم يجد سوى طيور طراب تتنقل بين الأشجار والربى, وفي الأجواء والبطاح, وشمس تتهادى في الصباح, بعد فجر حالم منير, فتعيد إلى الدنيا حياتها الصاخبة, وتبعث في الخلائق القوة والنشاط, وزهور عابقة في الحقول والأحراج, وورود ناعسة في الرياض والمروج, ونجوم تتراقص في الليل البهيج, على صفحات الماء العذب النمير أو البحر المائج الفسيح, وبدر يرسل أشعته الفاتنة على الأرجاء, فيحيل ظلام الليل الداجي إلى دنيا من السحر والجمال, فيبدو الوجود كأحلام تراقصت نشوى في خيال شاعر زاخر المشاعر, فياض الإحساس" [٨٦].

[٨٥] النعماني، مصدر سابق، ص ١٧.

[٨٦] كرو، مصدر سابق،ص ٦٠.

أولع الشابي مثل الشعراء الرومانسيين الأوربيين بالطبيعة وأحبها حبا جما. يقول النعماني في هذا الصدد:

" لقد كان الشابي شاعرا متأملا, محبا للحياة ... التي كان يكثر فيها من التأمل في الطبيعة؛ لأن فيها كل معاني الوجود والنشأة, ففي الطبيعة طفولة, وشباب وكهولة كما في حياة الإنسان, ولكن الذي يغلب عليها هو هذا الجانب الناضر, الذي يمثل الطفولة حينا, والشباب أحيانا أخرى. لقد أعجب بالطبيعة؛ لأنها دائمة التجدد بأزهارها وجداولها, ولهذا كانت تجيش فيه ذكريات قديمة, هي ذكريات طفولته, ذلك العهد الذي كان يمرح فيه دون سأم أو كلال" [٨٧].

فيقول الشابي:

قد كنت في زمن الطفولة, والسذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلابل, والجداول والزهور
لا نحفل, الدنيا تدور بأهلها, أو لا تدور [٨٨]

ثم يصف فرحه وسعادته في أبيات منفردة الجمال والبساطة قائلا:

أيام لم تعرف من الدنيا سوى مرح السرور
وتتبع النحل الأنيق, وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور
وبناء أكواخ الطفولة تحت أعشاش الطيور

[٨٧] النعماني، مصدر سابق، ص ٣٩.
[٨٨] *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ١٥٠

مسقوفة بالورد، والأعشاب، والورق النضير
نبني، فتهدمها الرياح، فلا نضجٌّ ولا نثور
ونعود نضحك للمروج، وللزنابق، والغدير
ونخاطب الأصداء، وهي ترِفُّ في الوادي المنير
ونعيد أغنية السواقي، وهي تلغو بالخرير
ونَظَلُّ نركض خلف أسراب الفراش المستطير
ونمرُّ ما بين المروج الخضر في سَكَر الشعور
نشدو ونرقص ـــــــــ كالبلابل ـــــــــ للحياة وللحبور [٨٩].

ثم يتذكر فجأة أن جنة الطفولة التي يشتاق إليها قد ضاعت فيذوب قلبه حسرة، ويصرخ:

آهٍ ! توارى فجريَ القدُسيُّ في ليل الدهور
وفنى، كما يفنى النشيدُ الحلوُ في صمت الأثير
أوّاهُ، قد ضاعت علي سعادةُ القلب الغرير
وبقيتُ في وادي الزمان الجَهْمِ أدْأَبُ في المسير
وأدوس أشواك الحياة بقلبي الدامي الكسير [٩٠].

فالشابي مرتبط بالطبيعة في طفولته وشبابه تتأثر حياته بها في جميع مراحلها، فينعم الشاعر بالمرح، والسرور والسعادة في أحضان الطبيعة كما يلقى الشقاء، والبؤس، والآلام والمتاعب فيها.

[٨٩] *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ١٤٧-١٤٨.
[٩٠] *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ١٤٩.

يرى عبد الحميد أحمدي أن جميع "قصائد الشابي تكاد لا تخلو من المظاهر الطبيعية؛ لأنه يراها ـــــــ كغيره من الرومانسيين ـــــــــــــ أداة لبيان ما يدور في نفسه من عواطف وأحاسيس مشبوبة" [٩١].

إن أبو القاسم الشابي يحول جميع الكائنات إلى معان نفسية. ويقول النعماني في هذا الصدد: "إن جميع الكائنات الحية وغير الحية, المعروفة الكنه والمجهولة الذات, من صخر, وزنابق ونايات إلى جنة وجن ... كلها تتحول عنده إلى معان نفسية تعبر عن آلامه وآماله, بل إنها تجوس أكثر خلال فجيعته في الحياة وظروفه فيها" [٩٢].

يرى الشابي أن تقود رسالة الشاعر إياه إلى أرحب آفاق الحياة, حيث يشعر الفنان بتيارات الوجود والكون ويدرك المعاني والأصوات وينسى الوجود الإنساني لحظة يتغيب في عالم الجمال المطلق الذي ينشئه الشاعر نفسه حواليه.

فيقول النعماني:

"كان [الشابي] يسمع الشعر في ضجة الريح, وهدير البحر, وبسمة الوردة الحائرة وقد تحلق فوقها النحل. كان الشعر عنده نغمة مفردة يرسلها الطائر في الفضاء الفسيح, وتحدثها وسوسة الجدول الحالم المترنم بين الحقول, وهدير النهر المتدفق وطلوع الشمس وخفوت النجم" [٩٣].

[٩١] أحمدي، مصدر سابق،ص ١٧.
[٩٢] النعماني، مصدر سابق،ص ٣٢.
[٩٣] النعماني، مصدر سابق، ص ٣٥.

يرى النعماني أن الطبيعة لعلها من ألمع المرايا التي تعكس وتبين اتجاه ابو القاسم الشابي نحو الغاب حيث يفرغ الشاعر رؤيته الفكرية والفنية مثل الرومانسيين. إنه يصف الجداول المتغنية الحالمة والدوح الذي يحنو بظله، وأنغامه وأنسامه، والإصغاء لنوح الرياح وترنم الشبيبة بألحان الغرام [٩٤].

كان الشابي يسقط حزنه على الطبيعة، إذا حزن، فهي تضحك لضحكه وتبكي لبكائه.

أما العاصفة الهوجاء التي وجدت في قصيدة "النبي المجهول"، فهي هدأت في نفس الشاعر، وثاب بعدها إلى شيء من الرضا والاطمئنان وعزم على أن يلجأ إلى عناصر الطبيعة بعيدا عن قومه" [٩٥].

فيقول الشابي في قصيدة "أحلام شاعر":

ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا سعيدا بوحدتي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال، وفي الغابات، بين الصنوبر الميادِ
ليس لي من شواغل العيش ما يصرف نفسي عن استماع فؤادي
أرقب الموت، والحياة، وأصغي لحديث الآزال والآباد
وأغني مع البلابل في الغاب، وأصغي إلى خرير الوادي
وأناجي النجوم، والفجر، والأطيار والنهر، والضياء الهادي
عيشة للجمال، والفن، أبغيها بعيدا عن أمتي وبلادي

[٩٤] النعماني، مصدر سابق،ص ٥١.
[٩٥] كرو، مصدر سابق،ص ٦٢.

لا أعني نفسي بأحزان شعبي فهو حي، يعيش عيش الجمادِ!
وبحسبي من الأسى ما بنفسي من طريف مستحدث، وتلادِ [٩٦].

ولقد مضى الشاعر إلى الغابات فعلا، وعاش بين أشجار الزيتون، والنخيل، والسرو والصفصاف كما يشاء وكما يحب فنان أن يعيش.

"وهو في الغابات المحببة إلى نفسه وبين سفوح جبالها المكللة بالصنوبر والصخور وتحت ظلال الأشجار الوارفة فيها، طلع عليه صباحه الجديد، فإذا جراحه تسكت، وأشجانه تسكن وآلامه تنتهي وإذا به ينطلق ليعانق صباحه الجديد "ليذوب في فجر الجمال السرمدي". ثم رأيناه يمشي إلى الشاطئ ـــــــ شاطئ الأبدية ـــــــ في سكون حالم وغفوة نشوى. حيث ركب هناك زورقه المسحور، ونشر قلاعه البيضاء، ورفع يده مودعا ـــــــ عالم الآثام والبغضاء ـــــــ ثم ينساب في خضم الأبدية العميق" [٩٧]، كما نجد في قصيدة "الصباح الجديد". وبذلك انتهت آلام الشابي، وسكتت جراحه وسكنت شجونه في هذه الدنيا الفانية.

يبغض الشابي، مثل الشعراء الرومانسيين، مجتمعه فيفر منه إلى الطبيعة. فيقول طمليه: "والشابي كغيره من شعراء الرومانسية، يلجأ للطبيعة كراهية وبغضا للإنسان، كما يجد في الجبال غذاء لشعوره، وفي الغاب مصدر متعته، وفي رؤية المدن وسماع ضجيجها أذى لسمعه وبصره"[٩٨].

[٩٦] *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ١١٤.
[٩٧] كرو، مصدر سابق،ص ٦٢-٦٣.
[٩٨] طمليه، مصدر سابق،ص ١٣٣.

فالطبيعة مصدر سكون وهداية للشاعر أبو القاسم الشابي كما تدل عليه قصيدته "الغاب". يقول أحمدي عنها: "إن الشاعر يشير [فيها] إلى الشعور الذي ينتابه عندما يكون في الغاب بين صفوف النخيل، والتلاع الخضر والآجام، إنه شعور يملأ عليه دنياه بهجة وسرورا ويسوقه إلى عالم من الخيال ينسى فيه الشاعر كل همومه وأحزانه... يرى الغاب قبسا أضاء الطريق أمام نفسه التائهة في الظلمات الحالكة، كما يراه وسيلة طهّرت نفسه من الأدران والأوساخ التي لحقت بها بسبب مجالستها جلساء السوء، ثم يشير إلى أن الغاب معبد الروح، والنفس والفكر الذي يجد فيه الشخص الراحة والطمأنينة ويتخلص به من هموم الحياة وأعباء المجتمع" [٩٩].

يخاطب الشابي في قصيدة الغاب نفسه قائلا:

"المعبد الحي المقدس هاهنا! يا كاهن الأحزان والآلام
فاخلع مسوح الحزن تحت ظلاله والبس رداء الشعر والأحلام" [١٠٠].

كتب عبد الحميد أحمدي عنوان القصيدة التي أخذت منها الأبيات المذكورة أعلاه كـ"إلى الغاب"، ولكن لم نجد أي قصيدة للشابي بهذا الاسم في أي مجموعات شعرية للشابي توجد لدينا. بل وجدنا عنوانها كـ"الغاب" في كل من ديوان *أغاني الحياة*، المنشور من الدار التونسية للنشر، ص ٢٦٦، و *ديوان أبو القاسم الشابي*، بدراسة وتقديم الدكتور عز الدين إسماعيل، ص ٤٦٠، و *ديوان أبي القاسم الشابي*

[٩٩] أحمدي، مصدر سابق،ص ١٥-١٦.
[١٠٠] *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ١٩١.

الذي قدم له وشرحه الأستاذ أحمد حسن بسج، ص ١٣٩، و *ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله*، بتقديم وشرح مجيد طراد، ص ١٦٤.

يقول الشابي في قصيدة الغاب:

" لله يومَ مضيت أول مرة للغاب، أرزحُ تحت عبء سقامي
ودخَلتهُ وحدي، وحولي موكبٌ هزِجٌ، من الأحلام والأوهامِ
ومشيتُ تحت ظلاله متهيبا كالطّفل ، في صَمْت، وفي استسلامِ
أرنو إلى الأدواحِ، في جبروتِها فإخالُها عَمَدَ السماءِ، أمامي
قد مسَّها سحرُ الحياة، فأورقَتْ وتمايلت في جنّة الأحلامِ" [١٠١].

يقول النعماني شارحا الأبيات المذكورة أعلاه:

"... لم يترك فيه شاعرنا العبقري معنى من معاني الجمال في الطبيعة إلا فطن إليه، مما يدل على أنه كان يحن إلى حياة الغاب، حيث المثل الأعلى للحياة، الذي لم يكن يبغي بالعيش فيه بديلا" [١٠٢].

مما لا شك فيه أن الطبيعة كانت مصدر سكون وراحة وباعثة على السرور والفرح للشابي في ضوء الأبيات السالفة الذكر آنفا. فهل حقا كان الأمر كذلك؟

فيرى الشاعر الإيطالي قويدو ميدينة رأيا مخالفا في هذا الأمر، ويقول مخاطبا الشابي والشاعر "سكاليزي":

[١٠١] *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ١٨٩.
[١٠٢] النعماني، مصدر سابق، ص ٥١.

"فإذا تحرك النخيل وداعبته الرياح, فأنا لا أفكر إلا فيك يا شابّي! مهما مررت من شاعر "المالطين" فأنت يا سكاليزي هو الذي تمر أمامي. لقد ملأتما كافة أطراف هذا البلد بلغتكما الموجعة وانتشيتما بجمال المآذن, والمساجد, وشوارع تونس الملتوية, ولكن تغاريدكما كانت دائما ـــــــ يا أخويّ ـــــــ حزينة بائسة!

شأن أغانيكما شأن البلابل التي تختفي في الظلمات لا لميلها عنها, ولا لأنها تخشى النور ولكن لأن الشمس تحدث لها أوجاعا كثيرة .. أجل الشمس التي تجلب السرور والخير, أما أنتما فإنكما لم تقدرا قط على قبول هذا السرور وهذا الخير ....!

لقد كان نداء الشمس للحياة والسرور مصادما لحركتما, جارحا لعواطفكما. وإني لأعذركما يا أخوي وأرثي لحالكما!

لقد بحث كلاكما عن الوحي والإلهام في المظاهر السمجة الغريبة, في الغالب!

أنت يا شابي كان قلبك يتألم وينفطر عند رؤية الطبيعة وهي ثائرة والبحر وهو متلاطم بالأمواج" [١٠٣].

ولكن محمد مصطفى بدوي يرى أنه رغم إيمان الشابي بأن الطبيعة لم تكن بهيجة, بدأ الشابي يعتبرها, بشكل تدريجي, ملجأ من المجتمع الظالم وعناصره الخبيثة. ويستدل بعدد من قصائده بما فيها "مناجاة عصفور" [١٠٤].

[١٠٣] مجلة *الثريا* التونسية، ع ٢ س ٣ ص ٣٥؛ نقلا عن: كرّو، مصدر سابق،ص ١١.

[١٠٤] See: Badawi, op. cit. p. 163

الشابي الذي عانى المرض وفكر كثيرا في الموت الذي سينهب حياته, رأى الصحراء مساهمة حزينة, رآها مفكرة في الموت والحياة كما يفكر هو فيها, لنستمع إليه, يقول:

"جمال الصحراء الذي يمتد أمامي جمال ساهم محموم, ولقد يخيل إلي أحيانا أنه يفكر فيما وراء هذا العالم الصاخب السوّار, في معاني الفناء, والموت والظلام. لقد يبلغ بي الوهم أحيانا أن أحسبه نفسا شاعرة مسلولة, تناجي في حمّى سقام أحلامها الحزينة الصامتة الموشحة بأردية الموت [١٠٥]".

نريد أن نخص الآن جزءا من شعر الشابي في الطبيعة بدراسة موجزة من الناحية الرومانتيكية.

دراسة رومانسية موجزة خاصة بعدد من قصائد الشابي في الطبيعة:

سنقوم بدراسة قصائد لأبو القاسم الشابي في الأسطر التالية, قصيدة تلو أخرى. هي من القصائد التي تشرح علاقة الشاعر مع الطبيعة وطبيعة هذه العلاقة وطرقها.

قصيدة بقايا الخريف:

بدأ أبو القاسم الشابي هذه القصيدة بذكر مشاعره تجاه القصور ونظرته إلى سكانها الذين يتصارعون فيما بينهم ويحاول الأغنياء فيها ابتزاز الضعفاء والفقراء

[١٠٥] نص لأبي القاسم الشابي، أورده محمد خليفة التليسي في كتابه *الشابي وجبران*، ص ٧٨ و ٧٩؛ نقلا عن: طمليه، مصدر سابق، ص ١٣٥.

ويظلمون الفقراء واليتامى. وعند رؤية المشاهد تصيب الشاعر هموم وأحزان. فيلجأ إلى الغاب حيث يجد كل ما يذهب بهمومه وأحزانه, ويرى هناك فضاء شاعرا حالما يناجي السهول, ثم تقع عينه على غدير هامد, قد ذبلت الزهور التي كانت حوله, ثم جاء على الزهور الخريفُ الذي لم يترك منها سوى زهرة حية واحدة شقية. ولكن لماذا تقيم هناك رغم قصف الرعود,والرياح المخيفة والسديم الذي يغشاها صباحا وترعبها الأحلام السيئة ليلا, وترهبها غاديات الغمام وتؤلمها العواصف؟ ترى هذه الزهرة حواليها فتجد رفيقاتها من الأزهار قد ماتت وجفت. فتبكي هذه المسكينة بكاء الغريب وتبث حزنها إلى النهار. ولكن من يسمع شكواها والدنيا حولها صخور صماء؟ وأخيرا غادرت الحياة الزهرة. وعن مصرعها , يقول الشابي:

فبانت حيال الغدير الأصم، وقد أخرس الموت ذاك الحفيف.
وقد خضبتها غيوم المساء، كغانية ضرجتها السيوفْ.

ولا يلبث الشاعر أن يتخذ من مصرع هاته الزهرة شبها لحظه ورمزا لحياته. فيقول:

"ذكرت بمضجعها المطمئن ومرقدها في السفير الجفيفْ
مصارعَ آمالي الغابراتِ وخَيْبتَها في الصراع العنيفْ" [١٠٦] .

هكذا يشبه الشاعر أحزانه, وآلامه, ومتاعسه ومتاعبه بعناصر الطبيعة وأحوالها المختلفة والآفات التي تصيبها ويمزج مشاعره معها.

[١٠٦] بسج، مصدر سابق،ص ١٠٥.

قصيدة الجنة الضائعة:

يمجد الشابي الطبيعة في هذه القصيدة والطبيعة تسره وتطمئنه, فيقول:

كم من عهود عذبة في عَدوة الوادي النضيرْ
كانت أرق من الزهو ر ومن أغاريد الطيورْ
وألذ من سحر الصِبا في بسمة الطِفل الغَريرْ
أيامَ كانت للحيا ةِ حلاوةُ الروض المطيرْ
وطهارةُ الروض الجميـ ـــــل ، وسحر شاطئه المنيرْ" [١٠٧].

يتضح من الأبيات المذكورة أعلاه أن الشابي, بالإضافة إلى فرحه بالطبيعة وطمأنينته بها , يرى أن بعض عناصر الطبيعة أفضل وأسَرُّ من عناصر طبيعية أخرى. فعدوة الوادي النضير هنا أفضل عنده من النسيم وأغاريد الطيور وغير ذلك.

قصيدة "أيها الليل":

يقول الشاعر في هذه القصيدة:

"أيها الليل! يا أبا البؤس والهو لِ, يا هيكل الحياة الرهيبِ!
فيك تجثو عرائس الأمل العذ بِ, تصلّي بصوته المحبوبِ
فيثير النشيدُ ذكرى حياة حجَبتها غيوم دهر كئيبِ.

[١٠٧] بسج، مصدر سابق،ص ٧٤.

أنت يا ليل! ذرّة، صعدت للـ ـــــــكون، من موطئ الجحيم الغضوبِ
فيك تنمو زنابق الحلم العذْ بِ، وتذوي لدى لهيب الخطوب
يهجع الكون في طمأنينة العصْـــــ فور، طفلا بصدرك الغِرّيب" [١٠٨].

في هذه الأبيات يعبر الشابي عن مشاعره تجاه الليل. فالليل بكل ما فيه من جمال ورهبة، ومن هدوء، يبعث في النفس التأمل ، وفي الروح الإشراق، كما يثير في النفس الكئيبة المخاوف أيضا.

قصيدة "فكرة الفنان":

يقول الشابي مبرزا أهمية الشعور وقيمه الطبيعية:

عش بالشعور، وللشعور، فإنما دنياك كون عواطفٍ وشعورِ
شِيْدت على العطف العميق، وإنها لتجفّ لو شيدت على التفكيرِ
واجعل شعورك في الطبيعة قائدا فهو الخبير بتيهها المسحورِ
صحِب الحياةَ صغيرةً ومشى بها بين الجماجم والدم المهدورِ
وعدا بها فوق الشواهق باسما متغنيا من أعصرٍ ودهورِ.

يعبر الشاعر، في هذه القصيدة، عن أقصى ما وصل إليه من هدوء واطمئنان. فيظن أن العقل بعد كل الذي بلغه في العصر الحاضر: من علم، وفلسفة، وأدب وفكر وبعد كل الذي شيده من صروح الحقائق وأمجاد المعرفة، لا يزال طفلا صغيرا لا يفقه شيأ من ناموس الوجود وأسرار الحياة. ولذا ينصحنا الشاعر بأن

[١٠٨] بسج، مصدر سابق، ٢٩-٣٠.

نجعل شعورنا في الطبيعة وما تظمه من بدائع وفنون وما فيها من سحر وجمال، وفتنة وضياء. وبهذا نكون قادرين على التمتع بجمال الحياة؛ كما ينهانا عن اللجوء إلى العقل المتفلسف المغرور فهو يقودنا إلى الشقاء والعناء.

قصيدة "من أغاني الرعاة":

"من أغاني الرعاة" قصيدة منفردة في وصف الطبيعة. فيقول طمليه إن "الطبيعة في شعره [الشابي] لم تظفر بقصائد منفردة , فلا تجد في ديوانه قصيدة بعينها يصف فيها غابة ..... أو إشراقة الشمس، أو أفول نجم، بل نجد ذلك في ثنايا قصائده على تعددها ومهما اختلفت أغراضها. ولعل القصيدة الجيدة التي خصصت لذلك، قصيدته "من أغاني الرعاة".

و"قصيدة من أغاني الرعاة" من أغنى قصائد الشابي بالصور الجميلة المعبرة، وفيها تتجلى قدرة الشاعر الموسيقية. فأنت حين تسمعها تطرب لألوان ثلاثة من الفن: تطرب للشعر العذب، والموسيقى المطربة والصور الجميلة ذات الألوان الخلابة" [١٠٩].

يشخِّص الشابي الطبيعة في هذه القصيدة. فيقول في أحد مواضعها مخاطبا شياهه:

"واسمعي الريح تغنّي، في شماريخ الجبال."

[١٠٩] طمليه، مصدر سابق، ص ١٣٧.

انظر كيف شخّص الشاعر هنا الرياح. ألم يجعلها تغنّي؟ لقد أضفى على الرياح الحياة ومنحها حق الغناء.

ويقول في موضع آخر منها:

"لن تملي يا خرافي في حمى الغاب الظليل
فزمان الغاب طفل لاعب, عذب, جميل
وزمان الناس شيخ عابس الوجه ثقيل".

انظر إلى الصورة: ألم يجسِّم الشاعر "زمان الغاب" ويجعل منه طفلا صغيرا, و"زمان الناس" فيجعل منه شيخا عابس الوجه ثقيلا. إنها القدرة على التصوير والتجسيم التي امتاز بها الشاعر.

ليس ذلك فحسب, بل يشارك هذا الشاعر الطبيعة تفكيره أيضا في القصيدة التي تحت دراستنا. فالشاعر الذي يديم التفكير ويطيل التأمل في الكون وأسراره, كأني به قد أراد أن تشاركه شياهُه وخرافُه تفكيرَه. فيقول:

"وامضغي الأعشاب, والأفـ ـــكار في صمت الظلال."

ولكن الشاعر يعبر عن أحزانه في هذه القصيدة بعد سروره العابر. فيخاطب شياهه قائلا:

"لن تملي يا خرافي في حمى الغاب الظليل
فزمان الغاب طفل لاعب, عذب, جميل

وزمان الناس شيخ عابس الوجه ثقيل".

ولوجود الصور الجميلة في قصيدة "من أغاني الرعاة" قرّر أحد النقاد أن هذه القصيدة "هي أعمق شعر الطبيعة في الأدب العربي" [١١٠].

أما زمان ومكان كتابة الشابي قصائد "من أغاني الرعاة"، و"إرادة الحياة" و"الصباح الجديد" فهما كما يلي. بدأت نوباته القلبية تشتد وتنغص عليه حياته في ١٩٣١، فنصحه الأطباء بالابتعاد عن الأعمال المرهقة للجسم والعقل وقضاء الحياة في الأرياف والقرى. فتنقل الشاعر بين أجمل المصائف والمشاتي الموجودة في تونس كما عاش فترة في منطقة "المشروحة" في ولاية سوق أهراس بالجزائر. غير أنه لم يستطع مع كل هذا أن يمتثل بنصائح الأطباء بالابتعاد عن القراءة المضنية، والإبداع المرهق والتفكير المجهد. فأنتج أروع قصائده مثل: "من أغاني الرعاة" و"الصباح الجديد"، أيام تنقله في المناطق الريفية الجميلة مستمتعا بالعناصر الطبيعية هناك لثلاث سنوات [١١١]. هكذا ضحى الشاعر بحياته، وصحته وراحته من أجل رقي الفن والشعر.

لم يكتف هذا الشاعر ببناء علاقات مختلفة مع الطبيعة، بل استخدم عناصرها لإيقاض قومه وتوعية مجتمعه.

محاولة الشابي إيقاض قومه بعناصر الطبيعة:

[١١٠] خليفة محمد التليسي، *الشابي وجبران*، ص ٧٩، نقلا عن: طمليه، مصدر سابق،ص ١٤٠.

[١١١] يراجع: النعماني، مصدر سابق، ص ٢٣.

حاول الشابي أن يوقظ قومه باستخدام عناصر الطبيعة, فأجال بصره في الطبيعة وأكثر منه, "فأيقن أن للحياة فتنة لا تدركها الأبصار, وأن للعالم جمالا حقيقا بالعبادة, حريا بالإجلال والتقديس. ثم عاد إلى قومه فحدثهم عن جمال الحياة, وسحر الوجود, وفتنة الكون الكبير,فما استمع أحد إليه, ولا حفل بحديثه إنسان. فتألم وتأوه, ثم طوى ألمه, وأسكت آهاته, وعاد إليهم في الصباح ـــــــ صباح الحياة ـــــــ وقد ضخ أكوابه بعطر الورود وعبير الأزهار, وأترعها بخمرة نفسه وعصارة قلبه, ثم قدمها صبوحا للشاربين من أبناء شعبه, ولكنهم ما ألفوا بعد خمرة النفوس المنصهرة ولا ذاقوا رحيق القلوب المتفجرة في صباح الحياة. فأهرقوا خمرته وحطموا كأسه ـــــــ كأسه الغريبة عليهم ـــــــ فتألم الشاعر من أعماق قلبه الجريح وتوجع بكل حاسة مشبوبة فيه. ثم كفكف آلامه ودموعه وجمع أحاسيسه وقواه, ونضد باقة من أزاهير الحياة وأوراد الوجود وقدمها إليهم, عل شذاها يفتح حواسهم المغلقة, وألوانها تستهوي أبصارهم الكليلة. ولكنهم ـــــ يا للعار ـــــــ كانوا أشد شرا منهم في المرة الأولى فأدرك أنه مجهول في قومه غريب بينهم" [١١٢], كما يقول:

"يا صميم الحياة كم أنا في الدُّ نيا غريب أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيـ ـــد فؤادي, ولا معاني بؤسي
في وجود مكبل بقيودِ تائه في ظلام شك ونحس
فاحتضني وضمني لك ـــ كلما ضي ـــــ فهذا الوجود علة يأسي" [١١٣].

[١١٢] كرو، مصدر سابق،ص ٦١.
[١١٣] بسج، مصدر سابق، ص ١١٢.

"ثم عصف وثار، فدمدم عليهم برعده وإعصاره، فكاد يعصف بهم في قصيدته "النبي المجهول" [١١٤]. فيقول الشابي فيها:

"أيها الشعب! ليتني كنت حطابا فأهوي على الجذوع بفأسي!
ليتني كنت كالسيول، إذا سالت تهدّ القبور: رمسا برمس!
ليتني كنت كالرياح، فأطوي كل ما يخنق الزهورَ بنحسي
ليتني كنت كالشتاء، أغشّي كل ما أذبل الخريفُ بقرسي!
ليت لي قوّة العواصف، يا شعبي فألقي إليك ثورةَ نفسي
ليت لي قوة الأعاصير، إن ضجّت فأدعوك للحياة بنبسي!
ليت لي قوة الأعاصير ..! لكن أنت حيّ، يقضي الحياة برمس ...!
أنت روح غبية، تكره النور، وتقضي الدهور في ليل مَلْس ...
أنت لا تدرك الحقائق إن طافت حواليك دون مسّ وجسّ
في صباح الحياة ضمّختُ أكوابي وأترعتها بخمرة نفسي ....
ثم قدمتها إليك فأهرقتَ رحيقي ودُست يا شعب كأسي!
فتألمت .. ثم أسكتُّ آلامي، وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نضدت من أزاهير قلبي باقة لم يمسّها أي إنسي ..
ثم قدمتها إليك، فمزقتَ ورودي، ودُستها أي دَوس
ثم ألبستني من الحزن ثوبا وبشوك الجبال توّجتَ رأسي" [١١٥].

[١١٤] كرو، مصدر سابق، ص ٦٢.
[١١٥] بسج، مصدر سابق،ص ٩٣-٩٤.

هكذا نقد الشاعر قومه وحاول إيقاضه وتوعيته باستخدام عناصر متعددة متلونة للطبيعة. والآن نتحدث عن تصوير الشابي الطبيعة في قصيدة "إرادة الحياة". يدخل الشابي فيها في حوار مع الطبيعة ويستمد منها القوة:

"ودمدمت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر:
"إذا ما طمحت إلى غاية ركبت المنى، ونسيت الحذر".

ثم يسأل الأرض: "أيا أم هل تكرهين البشر؟"

فتجيبه:

"أبارك في الناس أهلَ الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر"
وألعن من لا يماشي الزمان ويقنع بالعيش عيشِ الحجر".

والشابي إن كان ناجى الرياح، وخاطب الأرض، فقد همس في أذن الدجى قائلا:

"هل تعيد الحياة لم لمن أذبلته ربيع العمر؟ فلم تتكلم شفاه الظلام، ولم تترنم عذارى السحر".

ولكن ما الذي أجابه؟ أجابه الغاب وقال إن الشتاء سيجيء، ويذهب سحر جميع العناصر الطبيعية: فتصفر الأوراق وتسقط، وتذبل الأغصان وتحدث حوادث أخرى تذهب بجمال الطبيعة، ثم يعود الربيع فجأة ويعود معه جمال عناصر الطبيعة وسحره. فيمتلئ الكون فرحا وبهجة وجمالا:

"وأُعلنَ في الكون أن الطموح لهيب الحياة وروح الظفر"

"وإذا طمحت للحياة النفوس فلا بد أن يستجيب القدر! [١١٦]"

وقد أشرك الشابي الطبيعة في كل شأن من شؤونه, يدير معها حوارا. أبطاله الأرض, والرياح, والدجي والغاب, كل يجيب عن سؤال من أسئلته. لقد سخّر الشابي الطبيعة ليوضح فلسفته ونظرته إلى الحياة. علاوة على ذلك, يشدد الشابي, باستخدام الطبيعة, على الإرادة القوية للتحرر من الاستعباد ولخلق عالم مثالي من جديد خال من الظلم, كما نجد في قصيدة "إرادة الحياة. وللطبيعة وظيفتان أوليتان كما بين في القصيدة المذكورة أعلاه: التمكين والإيواء. ويظهر الدور الأول من تعبيره عن الحنين إلى جمال الطبيعة كسبب للمقاومة.

"ومن لم يعانقْه شوق الحياة

تبخّر في جوّها, واندثر".

والطبيعة في قصائد الشابي, تعمل أيضا كمعلم روحي يعلم البشرية المقاومة. وعلاقة المرشد والمتدرب هذه, تظهر جليا في قصيدة "إرادة الحياة", إذ نجد الأخير يوجه الأسئلة إلى الأول مما يدل على وجود علاقة متبادلة بينهما. وقد أبرزت هذه العلاقة في أبيات متعددة, من أمثال:

"وقالت لي الأرض ـــــــــ لما سألت: أيا أم هل تكرهين البشر؟"

سألت الدجى: هل تعيد الحياةُ لما أذبلته ربيع ا لعمرْ.

[١١٦] بسج، مصدر سابق،ص ٧٣.

أما وظيفة الطبيعة الثانية كملجأ فإنها ظهرت في صور شتى لمزاياها الجذابة. وأحد أمثلتها السطر التالي السارّ:

"هو الكون حيّ يحب الحياةَ".

يدعي رونق حسني, بعد تحليل الخصائص الرومانسية لشعر الشابي بما فيه تمجيد الطبيعة, أن الطبيعة في شعره كثيرا ما تمثل طفولته. فالأطفال, بفضل براءتهم, يملكون إرادة حرة؛ لا تخضع لأي عوائق. "وهكذا يهرب الشابي إلى الطبيعة كملجأ من لامبالاة الأناس المستعبدين وتخليهم عن حقوقهم الخطيرين" [١١٧] ولإحياء الحرية الطفولية. أعني أن االطبيعة المحلية تعطي السكان المحليين المظطهدين السلوان وسط الحكم الاستبدادي الموجود في الشعوب المستعبدة" [١١٨].

ويرى أحمدي أن الطبيعة بأرضها, ورياحها وغابها تتحول في شعر الشابي إلى شخوص حية يبادلها الحديث,ويسألها عن حقائق الوجود [١١٩].

استعارة الشابي المفردات من الطبيعة:

يستمد الشابي كثيرا من المفردات من الطبيعة. وإن من أغراض الشابي الشعرية, التأمل في الطبيعة كتأمله في الخريف, والمساء, والفجر, والأشجار, والطيور والأزاهير وما إلى ذلك [١٢٠].

[١١٧] Husni, Ronak, 'Al-Shabbi and his nature poetry: Romantic or Revolutionary?' *British Journal of Middle Eastern Studies,* 22(1) (1995), p. 90; according to: Haque, Manzura and Al Qahtani, Sitah, Asserting Resistance in Nazrul's "The Rebel" and Al-Shabbi's "Will Of Life" (Haque, and Al Qahtani, later on).

[١١٨] Haque, and Al Qahtani, op. cit.

[١١٩] يراجع: أحمدي، مصدر سابق، ص ١٧.

يقول عمران عن استمداد الشابي المفردات من الطبيعة: "يطالعك ديوان *أغاني الحياة* بحشد كبير من المفردات استعارها الشابي من الطبيعة. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عمق تأمل الشاعر بالحياة الطبيعية المحيطة به. فهو يستلهم منها ما يغني تجربته الشعرية, ويجعلها أكثر عمقا"[١٢١].

إن الشابي يستمد المفردات لشعره من الطبيعة في كثير من قصائده. فيستخدم الشاعر الرعد في قصيدة "أنشودة الرعد" للدلالة على انبعاث الصدى ويشخّص هذا الرعد الذي يسقط على الوادي ويرتل النشيد بشكل صوت يحدث الضجيج في خلال الأودية مثل ضجيج "جبار الجن". وليس ذلك فحسب بل تردد الكائنات هذا النشيد بألسنتها أيضا. فيقول:

"رتّل الرعد نشيدا ردته الكائنات
.....
يتهادى بضجيج في خلايا الأوديهْ
مثل جبار بني الجن بأقصى الهاويهْ" [١٢٢].

ويستخدم في نفس القصيدة الليل ليدل على الكآبة والرهبة, والجمال والغرابة, والجمود والبكم في آن واحد. فيقول:

"فسألت الليل, والليـ ـل كئيب, رهيبْ

---

[١٢٠] يراجع:عمران، مصدر سابق،ص ١٩.
[١٢١] عمران، مصدر سابق، ص ١٩.
[١٢٢] *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ١٨.

شاخصا بالليل والليـ ـل جميل، وغريبْ

.....

غير أن الليل قد ظـ ـلَّ ركودا، جامدًا

صامتا مثل غدير الـ ـقفر، من دون صدى! [١٢٣]"

أما قصيدة "في الظلام"، فيستمد الشاعر فيها كلمة "الفجر" لتدل على التفاؤل. فكما عند الحب قوة مهلكة هائلة، له نور ساطع جميل وله ابتسامة الفجر في حزن الظلام [١٢٤].

مثل الشعراء الرومانسيين تماما، يمزج الشابي في قصيدة "الزنبقة الذاوية" مشاعره مع عنصر طبيعي وهو الزنبقة التي أصابتها اللوعة القاسية، وآلمها الأسى، والحزن، والكآبة والرهبة، وصدعت الحياة صدرها. بيد أن الزنبقة لم تصبها هذه الآلام والجروح فقط، بل نزلت هذه البلايا على الشاعر أيضا. فتتشابه خطوبهما وآلامهما. ومن رزاياها الظلام، وأنين الأمل، والأسى، والألم. ويرى الشاعر أن الكلوم وقساوة الزمان وحّدتا بينهما، وكلاهما سيرقدان تحت التراب بعد انقضاء حياتهما [١٢٥].

وفي قصيدة "مناجاة عصفور" يعتبر الشابي نفسه طائرا أسيرا تارة وطائرا مترنما معبرا عن الكآبة والزفير تارة أخرى. فيسره ويمتّعه غناء العصفور الثمل المتنقل من غصن إلى آخر ومن شجرة إلى شجرة، ويحثه على الترنم والتغريد؛ لأن أغانيها

[١٢٣] *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ١٨.

[١٢٤] يراجع: بسج، مصدر سابق،ص ٤٩.

[١٢٥] *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ٣١-٣٢.

سلوة لنفسه المعذبة المقهورة. ويمزج الشاعر مشاعره مع مشاعر هذا العنصر الطبيعي الجميل، فتتشابه مشاعر الشاعر والطيور بما فيها العصافير في صفاء الضمير ونقاء المهجة [١٢٦].

أما قصيدة "المساء الحزين" فاستمد فيها الشابي كلمة "مساء" من الطبيعة ليثري بها شعره الرومانسي، "مساء يلفه الحزن، والأسى واللوعة ... مساء وقف الشاعر يستجديه أن يعيد ربيع الحياة، إلى قلبه الذي بات يبابا" [١٢٧]، ولكن دون جدوى. وفي نفس القصيدة، "في مسحة من التفاؤل يرسم لنا الشابي طريق الخلاص، وبلغة تقريرية يؤكد أن غيوم الشتاء هي التي أكسبت ورود الرياض رونقها كما أن تجهم الحياة وقسوتها هما اللذان نسجا للصبح عباءته" [١٢٨].

وأما قصيدة الشابي الموسومة بـ"بقايا الخريف" فيقول عنها عمران: "إذ يتأسى الشابي [فيها] لأحوال الفقراء، واليتامى، يهزأ بالخريف متطلعا إلى ربيع دائم لا تنقطع نُظْرَته" [١٢٩].

والحق أن الشابي لا يهزأ بالخريف الذي فصل الحزن والكآبة عند الشعراء الرومانسيين، بل يهرب منه إلى الربيع الذي هو موسم الفرح والسعادة عندهم أو يقارن بين هذين الفصلين.

---

[١٢٦] يراجع: *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ٥٥-٥٦.

[١٢٧] عمران، مصدر سابق، ص ٢٢.

[١٢٨] عمران، مصدر سابق، ص ٢٣.

[١٢٩] عمران، مصدر سابق، ص ٢٣.

ليس مقصود الشابي من قرض هذه القصيدة, وصف أحوال الفقراء, والأيامى, واليتامى, وظلم الأقوياءِ الضعفاءَ, بل الغرض منه التعبير عما يجيش في خاطره من مشاعر تجاه أحوالهم المتردية وتجاه الواقع المرير الذي يعيش فيه مجتمعه. يتهرب الشاعر من هذا الواقع إلى واقع آخر منجٍ من الآلام, سارّ مرضٍ وهو الطبيعة وعناصرها التي يلجأ إليها الرومانسيون للسلوان عن الآلام والنقاهة من المرض. فيلجأ الشابي إلى الفضاء والسهول في المساء الحزين, ويرى, وهو واقف بين الأشجار التي جرّدها الخريف من الأوراق, أن جميع أزهار ذلك المكان قد ماتت إلا زهرة واحدة, فهي حية لكنها تواجه مصائب شتى وعذابات مختلفة متتالية, ولا رفيق لها. فماتت. فذكّرت رزايا هذه الشجرة الشاعرَ مصارع آماله الماضية وفشله في صراع الحياة, وقد صرعه الهم والأسى. فقال:

وقلت: "هو الكون مهد الجمال ولكن لكل جمال خريف !.... [١٣٠]"

ويقول عمران في هذا الصدد:

"ويقلب [الشابي] الطرف في هذا العالم الفسيح, فيستوقفه ما فيه من جمال, ولكن يستنتج من دورة الحياة ومن حركتها أن لكل شيء خريفا, وحتى الجمال يؤول إلى خريف" [١٣١].

والآن نتحدث عن قصيدة "رثاء فجر". فيستوحي فيها الشاعر عناصر طبيعية للتعبير عن مشاعره. ويقول عمران عن محتواها: "ينادي الشابي في قصيدته "رثاء

[١٣٠] يراجع: *أغاني الحياة*، مصدر سابق، ص ٦٢-٦٣.

[١٣١] عمران، مصدر سابق، ص ٢٣.

الفجر" [١٣٢] زهو صباه وفتوة أحلامه وفجر شبابه الذي بات بعيدا عنه، متحسرا على حياته الحالمة التي عاشها بين أحضان الطبيعة، حيث الخمائل والجداول وموسيقاها العذبة تمتد في كل اتجاه" [١٣٣].

استخدم الشابي في هذه القصيدة عناصر الطبيعة من أمثال الغاب، والشعاع، والورد، والنور، والفجر كناية عن حياته السعيدة الراضية المرضية الممتعة بين ترنم الخمائل، ونشيد الجداول، وأغاني الكون الخالدة وحياته الخالية من الأعباء والتكاليف. وعكس ذلك عبر بالليل عن حياته المليئة بالمصائب، والآلام والشقاء؛ لأن هذا الليل قضى على حبه الحديث العهد. لعل الشاعر يشير بموت حبه إلى وفاة الفتاة التي أحبها.

أما قصيدته "من أغاني الرعاة"، فقد قضى الشاعر مدة من الزمن للاستشفاء بين غابات الطبيعة الكثيفة والجبال الشم المجللة بالسنديان الواقعة في مدينة عين دراهم في أقصى شمال تونس الخضراء. ومن هذا المشهد نتجت قصيدته "من أغاني الرعاة" التي ليست إلا صورة من صور الحياة بين تلك الجبال، والأودية والغابات، إذ لا يكاد يخلو بيت فيها من ذكر شيء من الطبيعة، كالصبح، والربي، والصبا، والغصون، والنور، والزهر، والطير ... وغير ذلك [١٣٤].

---

[١٣٢] هكذا كتب عمران عنوان القصيدة. ولكن عنوانها في ديوان *أغاني الحياة* ص ١٢٦، "رثاء فجر" وأورد مجيد طراد عنوانها في *ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله*، ص ٧٨، ك"رثاء فجري" ونجد نفس العنوان في *ديوان أبي القاسم الشابي* بشرح بسج، ص ٥٧.

[١٣٣] عمران، مصدر سابق،ص ٢٤.

[١٣٤] يراجع: عمران، مصدر سابق، ص ٢٤-٢٥.

أما قصيدة "الصباح الجديد"، فمع اتيان الصباح الجديد، تنتهي آلام الشاعر وتلتام جروحه، وتغمره الأفراح والمتع، ويبسط قلبه ليتمتع بالنشيد والضياء، والظلال، والشذى، والورد ويصبح فؤاده معبدا للجمال، مليئا بالرؤي والخيال. ورغم تناوب آلامه ومصائبه، يتجلد الشابي؛ لأن سحر الحياة لا يزول بينما يذهب الظلام مثل مرور الأيام والفصول، ويأتي الصباح. وهكذا يودع الشاعر همومه وأحزانه ويبدأ حياة ملؤها الفرح والسرور.

يصور الشابي في قصيدة "ذكرى صباح"، صباحا له ساحرا في غاب جميل، فيه كل مستلزمات السعادة ومكونات الفرح والمتع من النسيم الراقص والنبات الندي، وأغاني الرعاة، والألحان، والضياء والملاك الجميل المتغني مع الطيور بين الريحان، والعشب والسنديان، وشعوره ترقص بالأزهار، والضوء والنسيم. فيستجديها الشاعر أن تكبل أفكاره التي عذبت عقله كثيرا وتريح بذلك نفسه، ثم يمجدها ويصورها تصويرا بارعا يومئ إلى أنه في حاجة شديدة إلى حبها وجمالها للاستراحة من هموم الدنيا، وآلامها وشقائها، ولكن لهذا الجمال جانبا سلبيا أيضا، فهو يكون سببا لشقاء عابديه أحيانا.

يتسمد الشابي في قصيدة "تحت الغصون" مفردات كثيرة من الطبيعة مثل: الغاب، والخمائل، والزان، والسنديان، والزيتون، والضياء، والبنفسج، والضباب، والماء، والشفق، والعبير، والربيع، والزهر، والسهل، والربى، والحزون، والينابيع، والعصافير، والظل، والثرى، والغصون، والنسيم، والأقحوان، والليمون،

والياسمين، والليل، والظلام، والصخر، والثرى، والنور، والظل، والفجاج، والدجى، والنجوم، والسماء والذرى [١٣٥].

ويقول عمران عن هذه المفردات: "ويستعير الشابي من الطبيعة ما لا حصر له من المفردات" [١٣٦]. وليس الأمر كذلك؛ فلا يستحيل حصرها، وعدد هذه المفردات في قصيدة "تحت الغصون" ستة وثلاثون.

والسؤال الآن: لماذا يستعير الشابي هذه المفردات من الطبيعة؟ نعم، يستمدها الشاعر للتعبير عن مشاعره البالغة المجنونة غير الملجمة تجاه حبيبه المالكة الصفات الحميدة المتصفة بكل ما يحتاج إليه وكل ما يسرّه ويسعده من المزايا، وفي نفس الوقت يصف الشابي حبه في أحضان الطبيعة الجميلة الغنانة التي توفر جميع الوسائل اللازمة لراحة العاشق وحبيبه، وسعادتهما، وسرورهما ومتعتهما حيث يغيبان عن الدنيا وما فيها لساعات من الزمن. فيقول الشاعر:

"وسكرنا هناك ... في عالم الأحـ ـلام تحت السماء، تحت الغصون ..
وتوارى الوجود عنا بما فيـ ـه .. وغبنا في عالم مفتون ...
ونسينا الحياة، والموت، والسكو ن وما فيه من مُنًى ومَنون [١٣٧]".

ويستخدم الشابي في قصيدة "الغاب" كلمات من الطبيعة كما فعل في قصيدة "تحت الغصون". وأسماء العناصر الطبيعية التي وردت في أولى القصيدتين هي:

[١٣٥] يراجع: مصدر سابق،بسج، ص ١٥٢-١٥٥.
[١٣٦] عمران، مصدر سابق،ص ٢٦.
[١٣٧] بسج، مصدر سابق،ص ١٥٥.

الشذى، والظل، والأضواء، والغاب، والجداول، ومخارف، والأوراق، والأكمام، والدوح، والطل، والأغصان، والأنسام، والربى، والتلاع، والآجام، والطيور، والدخان، والسنديان، واليمام، والصدى، والفجاج، والآكام، والفراديس، والأزهار، والأيام، والصبح، والزعزع، والغمام، والضباب، والأفق، والريح، والفضاء، والثرى، والجبال، والأرض، والسدام، والوديان، والضوء، والنور، والأشعة، والأعشاب، والشفق، والعود، والدجى، والعواصف، والأيام، والنهر، والنار والأنغام [١٣٨].

يستخدم الشاعر عناصر الطبيعة المذكورة أعلاه للتعبير عن مشاعره المختلفة ويمزجها بالطبيعة. فيقول:

"في الغاب، في تلك المخارف، والربى وعلى التلاع الخضر، والآجام
كم من مشاعر حلوة مجهولة سكرى، ومن فكر، ومن أوهام" [١٣٩].

دخل الشاعر الغاب حزينا وقد أصابه الأسى والسقام والآلام. وسرعان ما ذهب عنه حزنه، وأساه، وشفي من سقامه. وفي هذا السياق يقول الشابي:

"في الغاب، في الغاب الحبيب، وإنه حرم الطبيعة والجمال السامي،
طهّرت في نار الجمال مشاعري ولقيت في دنيا الخيال سلامي.
ونسيت دنيا الناس، فهي سخافة سكرى من الأوهام والآثام" [١٤٠].

فعلى قلبه وهو كاهن الأحزان والآلام أن يجعل الغاب معبده المقدس الحي ويخلع مسوح الحزن في ظلاله ويلبس رداء الشعر والأحلام [١٤١].

[١٣٨] يراجع: بسج، مصدر سابق،ص ١٣٩-١٤٣.
[١٣٩] بسج، مصدر سابق،ص ١٤٠.
[١٤٠] بسج، مصدر سابق،ص ١٤٢.

فضلا عن ذلك استعارات الشابي مستمدة من الطبيعة. فيقول طمليه: "عشق الشابي الطبيعة, ومنها استمد استعاراته وتشبيهاته, يستشهد بها في ثنايا الكثير من قصائده, فإذا وصف حبيبته فهي عذبة كالصباح, وكالسماء الضحوك والليلة القمراء" [١٤٢].

النتائج:

النتائج التي توصلنا إليها في دراستنا هذه هي ما يلي:

- إن للطبيعة وعناصرها المختلفة ومظاهرها المتعددة أهمية كبيرة عند الكتاب والشعراء الرومانسيين بمن فيهم الشاعر أبو القاسم الشابي ومكانة سامية في قلوبهم.
- لا شك في أن الشعراء العرب في العصور ما قبل العصر الحديث, وصفوا الطبيعة, ولكنهم اعتنوا, في هذا الوصف, بالتسجيل التصويري والوصف المادي البحت للطبيعة دون أن يلتفتوا إلى روح الطبيعة ذاتها ويسقطوا عليها من عواطفهم وأحاسيسهم؛ لأنهم عاشوا في أرض قاحلة جرداء محرومة من الجمال الطبيعي. وأما سبب عدم قدرة الشعراء العرب الأندلسيين على التغني بجمال الطبيعة, ومحاسن الكون وسحر الوجود, رغم ولادتهم ونشأتهم في أرض جميلة فاتنة ساحرة, وهي بلاد الأندلس,

[١٤١] يراجع: قصيدة "الغاب" في بسج، مصدر سابق، ص ١٤٢.
[١٤٢] طمليه، مصدر سابق،ص ١٣٤.

فهو توفر أسباب الحضارة فيها توفرا مفرطا ما تسبب في انغماسهم في الشهوات انغماسا أمات العواطف الهائجة وأخمد نوازي الشعور, حسب رأي أبو القاسم الشابي.هذا الوصف فيه مبالغة غير صحيحة لأن شعراء الأندلس وصفوا الطبيعة وتأثروا بها وسمي بعضهم بشعراء الطبيعة أمثال ابن خفاجة لذلك نرجو منكم تصحيح هذه الرؤية المبالغ فيها

- لا ريب في أن الشابي قام بتجديد الشعر العربي تجديدا كبيرا؛ ولكن بدون أن يسخر من أجداده العرب, بل إنه أعجب بآثارهم إعجابا, ولكنه يرى في الوقت نفسه أنه لا ينبغي أن يتحول هذا الإعجاب إلى تقديس, فعبادة فجمود.

أما مقارنته الشعر العربي القديم ومعالجة الطبيعة فيه بالشعر الأوربي الحديث في الطبيعة فهي مقارنة

غير عادلة.

- أثّرت المظاهر الطبيعية في شعر الشابي في الطبيعة تأثيرا كبيرا. فولد الشابي ونشأ وترعرع في مكان ذي عيون زاخرة جميلة وبساتين فاتنة ساحرة, ولكل أولئك أثر بعيد المدى في شعر الشابي الرومانسي في الطبيعة. وعندما أصيب الشابي بداء عضال, أشار عليه الأطباء أن يعيش في المناطق الجبلية والطبيعية حيث الغابات, والبساتين, والوديان, والأنهار فامتثل بنصيحتهم وعاش في الغاب, ما أغنى شعره في الطبيعة كثيرا. وفي الوقت نفسه نصحوه أن يبتعد من الأعمال المرهقة ويجتنب من

القراءات المضنية للجسم والذهن، ولكنه لم يستطع الاجتناب من دراساته المتعبة وإبداعاته المدهشة مضحيا بذلك بحياته، وصحته وراحته من أجل رقي الشعر والفن.

- مثل الشعراء الرومانسيين تماما، يسبغ الشاعر أبو القاسم الشابي على الطبيعة الحياة، ويدير معها حوارا يخاطبها، ويسمع همسها، ويذوب فيها ويشخّص مناظرها.
- يستمد الشابي، في شعره، المفردات من الطبيعة للتعبير عن مشاعره البالغة تجاه حبيبه المالكة لجميع الصفات الحميدة.

قائمة المراجع والمصادر:

في اللغة العربية:

١. كرّو، أبو القاسم محمد، *الشابي: حياته – شعره*، المكتبة العلمية ومطبعتها، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٥٤.
٢. النعماني، عبد العزيز، *رحلة طائر في دنيا الشعر*، الدار المصرية اللبنانية. لا تا.
٣. هلال، الدكتور غُنِيْمَى، *الرومنتيكية*، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة
٤. أحمدي، عبد الحميد، مظاهر رومانسية في شعر أبي القاسم الشابي، في *إضاءات نقدية*، السنة الأولى، العدد الرابع – شتاء ١٣٩٠ ش / كانون الأول ٢٠١١م
٥. الشابي، أبو القاسم، *الخيال الشعري عند العرب*، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ٢٠١٢م
٦. طمليه، فخري أحمد حسن، *أبو القاسم الشابي: دراسة في حياته وأدبه*، بحث مقدم إلى جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، مصر، عام ١٩٧٣-١٩٧٤.

٧. رسالتنا للدكتوراه الموسومة بـ*"الرومانسية في الشعر العربي والشعر البنغالي: دراسة مقارنة"* , قدمت إلى قسم اللغتين العربية والفارسية, جامعة كلكتا, كولكاتا, الهند, في مايو, ١٩١٨م.

٨. site.iugaza.edu.ps/kghonem/files/2010/02/mathaheb_lda_algharb.doc

Date: 15/04/2014

٩. *أغاني الحياة* – ديوان شعر أبي القاسم الشابي, الطبعة الأولى, دار الكتب الشرقية, ١٩٥٥

١٠. *ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله*, بتقديم وشرح مجيد طراد, دار الكتاب العربي, بيروت, ط٢, ١٤١٥ ه – ١٩٩٤م

١١. ديوان أبي القاسم الشابي, بتقديم وشرح أحمد حسن بسج, دار الكتب العلمية, بيروت, الطبعة الرابعة, ٢٠٠٥م – ١٤٢٦هـ

١٢. *ديوان أبو القاسم الشابي*, بدراسة وتقديم الدكتور عز الدين إسماعيل, دار العودة, بيروت, ١٩٩٧

١٣. عمران, د. سحر عبد الله, *أبو القاسم الشابي: عبقرية فريدة وشاعرية متجددة: دراسة ومختارات*, دار البعث, دمشق, سوريا, ٢٠٠٩.

في اللغة الإنكليزية:

1. Badawi, M. M., *A Critical Introduction to Modern Arabic Poetry*, London, New York, Melbourne, 1975
2. Gaelle Raphael, Al-Shabbi's "The Will of Life" retrieved from : https://www.jadaliyya.com/Details/23935 on 08-04-2026, 10:00 AM
3. Wahas, Yazid Meftah Ali, Article 'Images of Nature in the Poetry of Abu Al-Qasim Al-Shabbi, in *Smart Moves Journal, (IJELLH)*, Vol. 8, Issue 11, November, 2020. DOI: https://doi.org/10.24113/ijellh.v8i11.10834

4. https://resources.saylor.org/wwwresources/archived/site/wp-content/uploads/2013/07/ENGL203-Subunit-3.3.1-Romanticism-and-Nature-FINAL1.pdf on 08-04-2014.
5. *The Complete Poetical and Dramatic Works of Lord Byron* (ed.) John Nichols and J.C. Jeaffreson, Philadelphia: E. Claxton and Company, 1883.
6. *The Complete Poetical Works and Letters of John Keats*, Cambridge Edition, (ed.) Horace E. Scudder, Boston and New York: Houghton and Mifflin Company, 1899.
7. Haque, Manzura and Al Qahtani, Sitah, Article 'Asserting Resistance in Nazrul's "The Rebel" and Al-Shabbi's "Will of Life", in *International Journal of Arabic-English Studies*, (IJAES), Vol. 24, No. 1, 2024, DOI: https://doi.org/10.33806/ijaes.v24i1.561
8. Wordsworth, William, eBook of *Lyrical Ballads, With Other Poems*, 1800, Vol. I., Release Date: September, 2005, Edition: 10, Produced by Jonathan Ingram, Robert Prince and the DP Team

..... ***** .....